فتاة تِندر

ليست الأشياء كما تبدو، وكذلك الأشخاص

رقم الايداع : ١٦٢٨
الترقيم الدولي : ٧٨٩٧٧٨٩٩١٢٩١

القاهرة اليوم
للنشر والتوزيع

رواية

لبنى حماد

١٨ أكتوبر ٢٠٢٢

أضأت الغرفة أخيرًا، أغمضتُ عيني للحظات حتى لا تحترق شبكية عيني من النور الساطع، ثم عدتُ فتحتها ببطء، وتأملت معالم المكان وأنا ما زلت متعلقًا فوق المقعد المتهالك. الصناديق الثلاثة تتناثر حول المقعد الذي أقف عليه حاليًا، والكلب هناك في ركن الغرفة ينبش الأرض الرملية، وقد نجح في حفر حفرة ليست بالهينة أبدًا، أراها الآن بمنظارٍ علوي من مكاني هذا. الرائحة خانقة للغاية، أنفي يتقلص باشمئزاز، والكلب يجذب شيئًا من بين طيات الحفرة وقد تصلب جسده بعصبية.

أراه يطبق فكيه على شيء عاجي اللون، يبدو صلبًا رغم كونه دقيقًا للغاية، لا أعرف لمَ، لكن يبدو لي هذا الشيء كالعظام.. إنها عظام بالفعل.

***

٢٥ مارس ٢٠٢٢

الساعة الرابعة عصرًا .

إنه يوم شديد الحرارة على غير عادة شهر مارس المعتدل الجميل، انقطعت الكهرباء بسبب ضغط السكان على التكيفات، فصارت شقتنا الصغيرة كالفرن المشتعل، الحر يسيطر على كل شيء، حتى الجمادات، أكاد أرى قطرات العرق تنساب على شاشة التلفاز، الرطوبة ترتفع حتى تكاد تزهق روحك.

استيقظت لميس، أختي المراهقة، بعد توقف عمل التكييف، أراها تتجول هنا وهناك بشعرٍ ثائر كميدوسا الإغريقية وبشرة لامعة من شدة الرطوبة، بينما أمي ترمقها بعينين ناريتين وتوبخها على نومها حتى هذه الساعة المتأخرة، وعلى ضرورة غسلها للصحون.

هرولت إلى الشرفة هربًا من الضجيج الذي تعالى تدريجيًا بداخل المنزل، فأنا أعرف أن مشاجرة حادة على وشك أن تولد، ولم أنسَ أن أُغلق باب الشرفة خلفي حتى لا ينالني نصيب من المشاجرة المنتظرة، لأن دخول ذبابة واحدة إلى صالة منزلنا سيكون بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير.

جلست في مقعدي المفضل تحت نباتات الظل بفانلتي الداخلية، ألهث من شدة الحرارة وأتطلع للمارة في الشارع، أتخيل نفسي الآن على أحد شواطئ جزر المالديفز، مثلما يجلس كل هؤلاء الأنفلونسرز اللُعناء في صورهم على الإنستجرام، هؤلاء الذين لا عمل لهم ومع ذلك يتربحون من اللا شيء الذي يقدمونه. التقطت كوب المياه الغازية البارد الذي جلبته معي من الداخل وجرعته باستمتاع، متخيلًا أنه عصير بطيخ مثلج تعلوه مظلة ملونة.

رباه كم أنا متعب!

أتوق لقليلٍ من الاسترخاء، التقطت سماعات الهاتف واخترت أغنية هادئة لمسار إجباري، ابتسمت وأنا أستمع لصوت هاني الدقاق الرخيم، أشعر به يتخلل خلايا عقلي رويدًا رويدًا ليرتب الفوضى بداخله، يزيل الغبار عن ثنايا مخي المرهق بعناية فائقة. المشاجرة لا زالت مستمرة بالداخل، ما زلت أسمع صوت أمي تزجر أخي الصغير لتمنعه من إغراق القطة في حوض الاستحمام. رفعت صوت الموسيقى حتى تغطي على ضوضاء الأجواء المشحونة التي بدأت تتسلل من باب الشرفة، أريد أن أنفصل عن الواقع.

لم أذهب إلى البنك اليوم، إن مديري المتسلط في إجازة، فلا مانع من الراحة قليلًا، عملًا بمبدأ (إن غاب القط، العب يا فار)، فأنا قد أتحمل الخصم، لكن

لا أتحمل توبيخه ومحاضراته الهزلية عن الالتزام. كما أن اليوم موعد لقائي مع أروى، أريد أن أقابلها وأنا مُنمق الهندام صافي الذهن.

تقولون من هي أروى؟ ماذا؟ ألم أخبركم من هي؟

حسنًا، سأقص عليكم، فقط دعوني أختار أغنية أخرى، فقد انتهت أغنية مسار إجباري، هممم كايروكي؟ فليكن..

هذه هي أروى، هل ترى شعرها الأسود المموج الذي صففته بعناية بالغة؟ والعينان العسليتان التي قد تغرقك بأعماقها، الأنف الرفيع ذو العظمة القوقازية الذي يعتلي شفاهًا مكتنزة تبدو شديدة الحمرة كحبة كرز ناضجة في الربيع؟

كنت أتصفح (تِندر)، برنامج المواعدة الأكثر شهرة، حين وجدت صفحتها، لفت نظري جمالها المميز في البداية، خطفت أنفاسي منذ اللحظة التي وقعت عيني على صورها، ثم زاد فضولي عندما قرأت ما كتبته عن نفسها، ووجدت بيننا الكثير من الأمور المشتركة، مثل حبها لمسار إجباري ومنير، وهوايتها القراءة والتأمل، أضف إلى ذلك كونها مؤلفة لروايات ذات شهرة لا بأس بها أبدًا، سبق أن قرأتها لكني كعادتي لم أهتم بمعرفة معلومات عن المؤلفة.

يبدو هذا غريبًا للغاية، أعني ما الذي تفعله قطعة العقيق الثمينة هذه هنا؟ إنها تبدو لي أجمل وأذكى من أن تتواجد على مثل هذا البرنامج في محاولة بائسة للبحث عن ارتباط أو علاقة!

إن الشباب من هم في مثل سني وظروفي الاجتماعية قد يجدون الكثير من الصعوبات لنيل الفرص، فيصير مثل هذا البرنامج ملجأً للبحث عن الفتيات، لكن أرجوكم لا تحاولوا أن تقنعوني أن مثلها لا تجد الفرص المناسبة!

أذكر أنني يومها كنت أجلس مع أصدقائي في المقهى، أدثر بمعطفي الثقيل الذي يقيني من برد ديسمبر في انتظار انتصاف الليلة لنحتفل برأس السنة سويًا باحتساء المزيد من السحلب ولعب عشرة طولة جديدة، فانفصلت عن عالمهم لثوانٍ وأرسلت لها طلبًا يائسًا لبدء محادثة، وتساءلت في سِري: هل لهذه الزهرة الفريدة أن ترد على رسالتي؟ فكما ترون أن صفحتي على تِندر ليست بالمغرية بالتأكيد، أنا شخص أقل من العادي، شكلًا وموضوعًا، لا تميزني الوسامة الشديدة ولا يرجح كفتي جيبي الممتلئ، أسرتي من أُسر الطبقة المتوسطة، أشغل وظيفةً لا بأس بها ببنك حكومي، وأحيا حياةً روتينية بحتة، دائرتي الصغيرة تُقلِّص الفرص لمن هم مثلي للارتباط، رغم جديتي في السعي، لعل ذلك هو سبب لجوئي لمثل هذا البرنامج رغم سوء سمعته.

وتقوم فكرة تِندر على ظهور العديد من الصفحات الشخصية للأشخاص المشتركين في البرنامج أمامك، مع عرض صورهم، اهتماماتهم وصفاتهم، وإذا وجدت أن بينكم ما هو مشترك وتود أن تتحدث معهم يمكنك أن ترسل لهم

طلبًا، إذا وافقوا على قبول الطلب يمكنكم الحديث، وإذا لم يوافقوا لا تستطيع التواصل معهم مجددًا.

ابتسمت بخبثٍ وأنا أتعثر في التطبيق بنماذج شديدة السوء، بعضهم يضع صورًا زائفة أو مشينة للغاية، والهدف واضح وصريح، إنها الدعارة الإلكترونية في أبشع صورها، والبعض الآخر يكتب آراء في منتهي التفاهة لا تصدر عن من هم في مثل عمره، وآراء عن المثلية والتحرر وادعاء الثقافة الزائف. كنت غارقًا في كل هذه الأفكار وأنا أتصفح المزيد من الصفحات الشخصية، ما بين الامتعاض والسخرية، حين جاءني إشعار برسالة جديدة من أروى، تزامنت مع دقة الساعة لتعلن انتصاف الليل وبدء العام الميلادي الجديد. دق قلبي بشدة واتسعت ابتسامتي، يا له من توقيت لطيف! وكأنها انطلاق الألعاب النارية لم يكن احتفالًا بالعام الجديد، بل احتفالًا بوصول رسالة هذه الحورية الرقيقة.

اعتدلت في جلستي وأنا أتأمل الرسالة، كانت تلقي سلامًا متحفظًا نوعًا ما، لكنه كان كافيًا للغاية لأبدأ حديثي. أذكر أننا أمضينا بقية الليلة نتحدث، في البداية كان الحديث جافًا ذو إيقاع بطيء رغم كوني متشوق لسبر أغوارها، لكنها لم تكن تستجيب بشكل سريع، ربما لأني كالعادة في بداية حديثي أبدو كشخص ممل قليل الخبرة، لكنني قررت أن أختصر الطريق وأحدثها باللغة التي أفضل دائمًا التواصل بها.. الموسيقى.

فأرسلت لها أغنية لمسار إجباري، انتظرت قليلًا ثم وجدتها تجيبني بإرسال أغنية أخرى، وقد تحرر لسانها من عقدته، فانطلقت تتحدث عن عشقها لأغاني مسار إجباري وكيف أنها تتمنى أن تحضر لهم حفلة لكنها تكره الازدحام بشدة. تغير مجرى حديثنا تمامًا، فصرنا نتحدث عن كل شيء بشكل عشوائي وتخللت أحاديثنا الأغاني التي نرسلها لبعضنا كأننا مراهقين.

كنت سعيدًا للغاية بحديثي معها، لدرجة أنني لم أشعر بطول طريق العودة للمنزل ولا ببرودة الجو، وأحببت أن مشاعر الحماس متبادلة بيننا، فصارت هي من تبادر بالحديث كلما قلّ تدفق خواطري، وهذا من حسن حظي، لأنني لم أرغب أن نتوقف عن حديثنا المسترسل، حتى عندما كانت تنقطع بي سبل الحديث كانت هي مَن تجد مواضيع جديدة، ومع خيوط الفجر الأولى استأذنت وانصرفت على وعد بأن نتحدث اليوم التالي، توقعت أنها ربما لن تتحدث مجددًا، كما يحدث دائمًا معي، لكنني استيقظت ظهر اليوم التالي على رسالتها العذبة.

***

أغلقت باب الشرفة جيدًا حتى لا أستفز أمي التي رمقتني بنظرات متوعدة بدون سبب واضح، واتجهت لغرفتي لأنتقي ملابس صيفية خفيفة تهون من شدة الحرارة، وانطلقت أرفرف كالعصفور.

هذا هو المقهى الراقي الذي اختارته هي في الدقي للقاء، وقد جاء اللقاء بناءً على رغبة وإلحاح شديدين مني بعد مرور شهرين ونصف من الحديث الإلكتروني والهاتفي، وقد كانت دائمًا تتهرب وتعتذر، لكنها وافقت أخيرًا.

أقف على باب المقهى، أقاوم الهرب وركبتي اليسرى لا تكف عن الارتجاف بشدة، أخشى أنها لن تجدني لطيفًا في الحقيقة مثلما وجدتني في المحادثات، إن المحادثات دائمًا ما تعطيك مساحتك للتفكير وتبث فيك نوعًا من الثقة، تجعلك تملك كل الوقت لترتيب أفكارك وانتقاء آرائك بعناية فائقة قبل التصريح بها، فيخرج حديثك جذابًا ممتعًا. بينما وأنت مجبر على الحديث والعيون ترمقك بتمعن، فثق أن حديثك سيخرج من فمك تافهًا مليئًا بالهراء، حتى وإن كنت لا تقصد ذلك.

مررت أمام زجاج لامع للغاية، فرمقت شعري الذي بعثره الهواء حتى صرت أبدو كالمهرج، مددت يدي أهذبه بسرعة متوسلًا له أن يجعلني أبدو وسيمًا بعض الشيء، وتأملت لون قميصي الصيفي متسائلًا: يا ترى هل تحب هي هذه الألوان؟

كنت غارقًا في تلك الأفكار حتى الثمالة، حين لمحتها تجلس على منضدة جانبية في المقهى، رفعت يدها بأناقة تشير إليَّ حتى أراها. اقتربت ببطء وجلست أمامها مبتسمًا وقد ألقيت تحيةً بصوتٍ خافت للغاية، فبادلتني الابتسام والتحية، ثم انطلقت في حديثٍ مرح بصوتها العذب الذي اعتدتُه في مكالمتنا الهاتفية، لكني لم أسمع ماذا تقول بالتفصيل، فقد شرد ذهني في ملحوظة غريبة نوعًا ما.. إن هذه ليست أروى! أو بمعنى آخر، لا تبدو مثل أروى التي عرفتها من الصور، إنها تحمل نفس الملامح بالمللي، لكنها مختلفة بالتأكيد! ربما تبدو أكثر شحوبًا، أو أكثر امتلاءً، لا أعلم.. هناك خطب ما! ثم لون عينيها، إنه مختلف، لا أستطيع أن أُحدد الاختلاف، لكنه موجود بالتأكيد، واختلاف صارخ كذلك.

تحركت يدي لا شعوريًا نحو الهاتف، وددت لو اختلست نظرةً سريعة لصورها لأتأكد من شكوكي، لكنها قاطعتني باسمة:

- مالك؟ ساكت ليه؟ انت مش رغاي زي الشات خالص!

ابتسمت لدى سماعي صوتها العذب وقلت محرجًا:

- رهبة المقابلة الأولى، بيقولوا عليا لخمة شوية.

مالت إلى الأمام قليلًا وقالت هامسة بعذوبة:

- أنا مش قاتلة مأجورة.. مفيش داعي للقلق.

كانت تقصد أن تقلل من حدة التوتر بجملتها تلك، فابتسمت لها، لكنني ما زلت متوترًا، ربما لأنها المرة الأولى لي أن أقابل إحداهن عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي.

قاطع تدفق سيل أفكاري قدوم النادل، فطلبت لنفسي قهوة، بينما سألته هي عن جودة القهوة لديهم وهي تلعب في خصلة من شعرها المموج، ارتبك الفتى النحيل وحك أنفه استعدادًا للكذبة القادمة، وأخذ يمدح مذاق قهوتهم بحماس مبالغ فيه وكأنه يدافع عن أكل أمه كريه المذاق، استغللت فرصة انشغالها وتطلعت لهاتفي خلسة.

حسنًا، لا مزاح هنا، هناك ما يقرب من سبع اختلافات على الأقل بين الصور وهذه التي تجلس أمامي. هذه وجهها أكثر استدارة، تناثرت الحبوب الملتهبة في جبهتها ذات البشرة الدهنية! ثم العينان، العينان عسليتان وليست خضراء! ثم شعرها أسود فاحم ومموج بشدة، لكنها مازالت نفس الشخص كذلك، هل هذه صور قديمة لها مثلًا؟ ربما! لكن ما تفسير اختلاف لون عيونها؟ إن المرء قد يزداد وزنه مع الوقت أو يتلوث وجهه بعدوى بكتيرية فيفقد صفاء بشرته، لكن هل يغير لون عينه؟ ربما عدسات لاصقة!

عدت أتأملها وتعلقت عيني بيدها اليسرى، إنها تفتقد إصبعًا! رباه!

لا خطأ هنا، أخذت أعد الأصابع في هلع، لكن خلسة حتى لا تنتبه، لا بد وأن هذه المسكينة قد فقدت إصبعًا في حادثٍ مؤسف!

انتهت من حديثها مع النادل فالتفت لي مبتسمة ابتسامتها الملائكية، فوجدت عيني متعلقة بأناملها، ووجهي ممتقع نوعًا، ما فخفت يدها تحت المائدة وقالت لي همسًا بقلق:

- انت كويس؟

- آه.. مش عارف.. المكان بس مخنوق شوية.. مش حاسس إني عارف أتنفس كويس.

- طب تعالى نطلع نقعد برا في الهوا.

نهضت بتوجسٍ وتبعتها للخارج، اختارت طاولة هادئة في الظل وجلست، فجلست أمامها أتأملها بصمت، شعرت هي بتوتر، فأخذت تتحدث عن يومها وعن محاولاتها الفاشلة بإقناع نفسها بحضور حفل مسار إجباري، وعن سيارتها التي تعطلت فاضطرتها أن تكمل يومها مشيًا على الإقدام، كان حديثها عذبًا مُسليًا كالمعتاد، لكن عقلي الشارد منعني من الاستماع بتركيز، صمتت لبرهة ووجدتها تخرج يديها التي حرصت على أن تبقيها أسفل المائدة طوال حديثنا، ووضعتها أمامي قائلة:

- اتخضيت؟

هززت رأسي نافيًا وابتسمت في حرج فاستطردت قائلة:

- وأنا صغيرة فيه كلب في الشارع عضني وقطع لي صباعي.

تذكرت ما قالته لي في إحدى المحادثات عن خوفها المرضي من الحيوانات، لكني لم أسألها وقتها عن سبب هذه الفوبيا، هززت رأسي بتفهم لكني لم أستطع أن أغلب فضولي في النهاية، فقلت لها مبتسمًا وأنا أنظر في عينيها مباشرة:

- بس انتِ شكلك مختلف كتير عن الصور!

هزت رأسها مبتسمة وقالت وهي تشير بإصبعها لجبهتها:

- وشي ضارب حبوب من الحر.. أنا بكره الصيف مش بفهم الناس اللي تقولك بنحب الصيف.

- الصيف السنة دي شكله هيبقى صعب.

برقت عيناها في مرح طفولي قائلة:

- آه، الرطوبة عالية أوى، شفت؟ مش ممكن..

هززت رأسي متفهمًا، لكني عدت أسألها بتصميم:

- عينيكِ برضو.. لونها مختلف، أعتقد في الصور خضرا؟ أنا شايفها عسلي دلوقتي.

- آه.. لا دي الإضاءة والايفيكتس بتاعت الصور وأحيانًا الفلاتر بتغير الألوان.

صمت ولم أُعلق، وانشغلت بتأمل قهوتي التركية التي أحضرها الفتى سيئة المذاق بدون وجه، بينما اعتدلت هي في جلستها وغيرت من وضع ساقها قائلة بثقة وهي تنظر إلى عيني بدورها:

- عشان كدا ساكت؟ لقيت شكلي أسوأ مما كنت متوقع؟

توترت وقلت لها بتلعثم:

- لا.. مش بالظبط.. أنا مقولتش كدا خالص..

قاطعتني مبتسمة:

- لقيتني أتخن شوية.. وشي كله حبوب، شعري مش ناعم ومفرود؟ كنت جاي تقابل الموديل اللي في الصور واتصدمت؟

زاد تلعثمي وأنا أحاول أن أبرر موقفي:

- أنا.. بس حاسس...

قاطعتني مجددًا:

- انت مش مضطر تدافع عن نفسك، انت مش أول حد يقولي التعليق دا، عادي، المثالية اللي بنشوفها في بلوجرز السوشال ميديا أكلت دماغنا.. الإيفيكتس اللي بقينا نستخدمها عشان نخلي شكلنا في الصور بيرفيكت زي الممثلين بقت بتعلي سقف الطموحات في الحقيقة. مقدرش ألومك إنك مستغرب شكلي ومش

عاجبك وبتفكر تقوم تمشي دلوقتي حالًا، ولا انت تقدر تلومني إني بستخدم ايفيكتس كتير في صوري عشان عايزة شكلي يبقي أحلى من الحقيقة زي الممثلين، بس على الأقل لما قررت أنزل أقابلك أول مرة، نزلت على طبيعيتي من غير ما أفرد شعري ولا مكياج يداري الحبوب ولا كورسيه يرفعني.

شعرت بحرج مبالغ فيه، ونظرت إليها بينما تراقب ساعتها بتململ، إنها بالتأكيد تفكر في المغادرة بعد صدمتها في هذا الأجوف الذي يجلس أمامها، لقد توقعت أن تجدني شخصًا ذكيًا مثقفًا مختلفًا عن القطيع، مثلما اعتادت أن تقول لي طوال فترة حديثنا الإلكتروني والتليفوني، لكنها لم تجد أمامها سوى رجل آخر خاوي العقل يبحث عن الشكل لا الجوهر.

همت تقول شيئًا وهي عاقدة حاجبيها، فاستنتجت أنها قد ترغب في الرحيل المبكر الذي أحاول أن أتحاشاه فسبقتها مغيرًا مجرى الحديث مبتسمًا:

- أنا رايح حفلة مسار إجباري اللي كمان شهر دي.. تحبي تيجي معايا؟

رفعت حاجبيها بفضول وابتسمت قائلة:

- والله أنا نفسي أروح بجد بس أنا عمري ما رحت حفلة. الزحمة بتوترني.

- ملكيش دعوة.. هتبقي معايا.. أوعدك هتنبسطي.

صمتت قليلًا كأنما تزن الأمر في عقلها ثم قالت:

- ماشي يا أستاذ هاني.. اتفقنا.

عادت بسمتها إلى وجهها على استحياء، فشعرت أنه يمكنني أن أصلح ما أفسدته بغبائي السابق رويدًا رويدًا. وأخذت أُحدثها بمرح عن المواقف المضحكة والمحرجة التي تعرضت لها وأنا أتجول في تِندر لعلها تعذر شكوكي وأسئلتي السابقة، فتحولت بسمتها لضحكة وبدأت توافقني في الكثير من النقاط حول سوء سمعة هذا التطبيق وكيف أنه يصلح بيئة خصبة لعمليات النصب أو على أفضل الظروف الابتزاز العاطفي.

قضينا الأمسية نثرثر عن كل شيء، وقد انكسر حاجز الثلج كثيرًا، فلم أعد أشعر بالغربة التي شعرت بها في بداية اللقاء، ربما شيء ما بداخلي ظل قلقًا قليلًا وغير متقبل أن تكون هذه هي أروى التي كنت أحدثها إلكترونيًا، لكن هذا هو خطأي أنا، فقد رسمت لها صورة بشكل ما في مخيلتي، صورة هي خليط من صورها التي كانت تبدو فيها خارقة الجمال وبعض التفاصيل التي أضافها عقلي الباطن، والتي تمنيت أن تكون بها، فعندما لم أجد الحقيقة مطابقة لخيالي شعرت بخيبة أمل غير مبررة. لكنها في الواقع نفس الشخص المثير للاهتمام الذي لطالما أثارت اهتمامي بحديثها الممتع.

إن أروى ليست سوى لؤلؤة براقة، وقد قررت أن أُخرجها من محارتها بلطف.. إذا سمحت لي هي بذلك.

***

جلست لميس أختي التي لم تتعدَ العشرين عامًا، تتأملني بسخرية وأنا لا أرفع عيني من شاشة الهاتف وقد ارتسمت ابتسامة بلهاء على وجهي، وقالت لي بخبث:

- يعني قعد ياخد رأيي.. أعمل إيه يا لمييس وأقول إيه يا لمييس، ولما راح يقابلها مجاش يحكيلي عمل إيه حتى! أنا بجد مش مصدقاك.

انتبهت أنها تحدثني في نهاية الجملة، فنظرت لها مبتسمًا نفس الابتسامة البلهاء قائلًا:

- انتِ متأخرة يجي شهر تقريبًا، أنا بقالي شهر بشوفها كل يومين بعد الشغل.

- كمان؟ آاه يعني مكنتش اجتماعات في البنك يا ماما وبيأخرونا عشان تقفيل الشهر زي ما بتقول لماما بقى؟

- لا كنت بزوغ من أمك عادي.

- مااشي مااشي.. طب متبقاش تطلب مني نصايح تاني بقى، شوف مين هيلحقك.

- اتنيلي.

اعتدلت في جلستها وتطلعت لعيني مبتسمة:

- طب إيه؟ مبسوط؟

- الحقيقة.. مبسوط جدًا، هي لطيفة أوي، حاسس إننا شبه بعض في كل حاجة تقريبًا.. ما عدا إنها بترعب من الحيوانات طبعًا وأنا عايش وسط الحيوانات زي ما انتِ شايفة.

فلكمتني ضاحكة، أكملت حديثي مبتسمًا بفخر طفولي:

- وهي كمان مستلطفاني أوي.

- ودا شيء غريب الحقيقة!

- هنستظرف مش هكمل كلام!

- طب فاتحتها في الارتباط والخطوبة؟

- مش لسه بدري؟

- بقالكم قد إيه كدا بتتكلموا؟

- شهرين ونص شات وتليفونات.. كنت مكسوف الصراحة أعرض إننا نتقابل في الأول.. وبعدين اتجرأت وقعدت أزن إني أشوفها، وآدينا آهو.. بقالنا شهر بنتقابل كل يومين تقريبًا بعد الشغل، بروح أقابلها في الكافيه اللي بتقعد تكتب فيه.

- هي بتشتغل إيه؟

فتحت ذراعي بشكل مسرحي قائلًا:

- بتشتغل أرررررروى نبيييل.

عقدت لميس حاجبيها بعدم فهم قائلة:

- إيه يعني أروى نبيل؟

اتجهت إلى مكتبتي الصغيرة وتناولت راوية أروى ووضعتها أمام لميس التي هرشت رأسها بغباء، فقلت لها وأنا أشير إلى اسم أروى على الغلاف:

- يا بت، أروى مؤلفة روايات، ودي واحدة من روايتها.

أطلقت لميس صافرة دهشة وهي تطلع على غلاف الكتاب ثم تقلبه لتقرأ النبذة عن المؤلف المدونة في ظهر الغلاف بصوت عالٍ:

- أروى نبيل، كاتبة مصرية شابة، تخرجت في كلية الهندسة، ثم تركت مجالها للتفرغ للعمل الأدبي، صدر لها ثلاث مجموعات قصصية، وتعد رواية العائدة هي روايتها الأولى.

ثم نظرت لي مبتسمة:

- والله وقعت واقف يا واد! ومثقفة آهو زي ما بتحب.

- ورايحين حفلة مسار إجبارى النهاردا سوا.

- يا سيدي! أنا شايفة ٣ شهور فترة حلوة وأظن أجواء ما بعد الحفلة وكدا مناسبة جدًا إنك تفاتحها في موضوع الخطوبة.

هززت رأسي ونهضت لأرتدي ملابسي وأنا أفكر في كلام ليس وقلبي يرقص طربًا بشكلٍ ما، وإن كنت أتظاهر بالعكس.

خطوبة؟! ولمَ لا؟ ربما لم تطل فترة تعارفنا لكنني في الواقع متعلق بفكرة وجودها في حياتي وإن كنت أحاول التعقل وكبح مشاعري، لكنني صرت لا أستطيع قضاء اليوم بدون وجودها بشكلٍ أو بآخر. لعله الحب الذي يقولون عنه! لكنني لا أعلم إذا كانت تبادلني المشاعر أم لا!

حسنًا، أعتقد أن أقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم، سوف أصارحها بحقيقة مشاعري اليوم بعد انتهاء الحفل، ربما كان هذا القرار هو الأكثر تسرعًا في حياتي على الإطلاق لكنني قررت أن أتخذه وليكن ما يكون.

***

لم تكن الحفلة سيئة على الإطلاق، وعلى الرغم من ذلك لم تكن أروى سعيدة على عكس ما توقعت تمامًا، ولن أبالغ إن قلت أنها كانت مذعورة نوعًا ما وإن كانت تحاول جاهدة أن تداري رعبها، لم أفهم سبب خوفها، وصرت أسألها كل دقيقة إذا كانت على ما يرام، وإذا كانت تريد المغادرة، لكنها في كل مرة كانت تجاهد لترسم بسمة قائلة أنها بخير. لكنها ظلت تنتفض كلما لمسها أحدهم أو صدمها وهو يرقص أو حاول العبور بين الصفوف، وكان هذا يحدث حرفيًا كل ثلاث ثوانٍ نظرًا لضيق المساحة والزحام.

حاولت أن أحاوطها بذراعي حتى أُقلل من اصطدامها بالمارة، لكني اكتشفت أنها تنفر من اقترابي أنا شخصيًا منها كذلك، وامتقع وجهها وبدأت تتصبب عرقًا رغم برودة الجو وأخذت تداري عينيها براحتيها من الأنوار الساطعة، بررت توترها لي أنها لا تحب الزحام وأنها المرة الأولى التي تحضر حفلة ولم تتوقع هذه الحشود المرعبة، جذبتها من ذراعها لنتراجع عن الزحام ونقف في خلفية المكان. جلست أرضًا تلتقط أنفاسها وجلست جوارها في قلق:

- انتِ كويسة يا بنتي؟

قالت بصوت متقطع:

- آه.. أنا بس أول مرة أحضر حفلة.. متخيلتش الزحمة هتبقى كدا!

- طب اهدي خالص.. إحنا بعدنا عن الزحمة آهو.

تنفست الصعداء ونظرت بقلقٍ للمارة الذين يقفزون كحبات الفشار على صدى صوت هاني القوى وهو يشدو: "مكتوب عليك نص السما.. ملكش حق في كلها".. وضمت ركبتيها بذعر إلى صدرها.

- متخافيش يا أروى.. هما بعيد.

هزت كتفيها ودفنت رأسها بين ذراعيها.

- هروح أجيب لك مايه.

اتسعت عيناها في رعبٍ وتشبثت بذراعي قائلة:

- متسبنيش لوحدي!

فأشرت إلى بائع المياه الذي لا يبعد كثيرًا عن مكاننا لأطمئنها أنني لن أبتعد كثيرًا عنها. اتجهت لبائع المشروبات وأنا أضرب أخماسًا في أسداسٍ بغيظ، لقد دمرت جميع خططي في الحديث معها عما يعتمر بقلبي الليلة. دفعت للبائع نقوده وفتحت زجاجة المياه.. تجرعت جرعة مياه وأنا أتأملها من مكاني. دقيقة كالدمية الصغيرة، تجلس أرضًا وتضع كفيها على أذنيها في انزعاج واضح من الصوت المرتفع. يا لها من تركيبة غريبة!

***

ترجلنا من السيارة على كوبري قصر النيل، القمر ساطع ينير الكوبري الذي تناثر عليه المحبون وبائعي الذرة المشوي والحمص، أصرت على أن تدفع ثمن الذرة المشوي كنوع من التعويض عن تذاكر الحفلة التي انصرفنا في بدايتها، قضمت من الذرة وقالت مفسرة:

- أنا بخاف من الزحمة.. بتوترني أوي.

- ليه؟

صمتت وكأنها تحاول أن تجد تفسيرًا منطقيًا، فهزت كتفيها بحركة لا معنى لها قائلة:

- مش بستحمل الصوت العالي.. الأضواء القوية.

- أيوة ليه برضو؟

صمتت وأشاحت ببصرها بعيدًا لبرهة ثم عادت تنظر إليَّ قائلة:

- مش عارفة إذا كنت أقولك ولا مش هتفهم.

- أنا مش غبي.

- الموضوع ملوش علاقة بالغباء خالص.. الموضوع بس مش شائع أوي.

- اللي هو إيه؟

وابتسمت بأسف قائلة:

- هاني.. أنا عندي سمات توحد من وأنا طفلة.

صمتُ ورفعت حاجبي مستفهمًا لاهثًا على المزيد من التفاصيل، فأكملت:

- وأنا صغيرة المدرسين بتوعي لاحظوا إني انطوائية بزيادة.. مبحبش أتكلم مع حد من زميلي، تحصيلي الدراسي كان ضعيف، مش بندمج في أي نشاطات ما عدا حصص الرسم الوحيدة اللي تركيزي كان بيتشحن جدًا فيها، تقريبًا مكنتش بسيب كراسة الرسم، طول الوقت برسم وبس.. ولما حد كان بيحاول ياخد مني كراسة الرسم كنت بتعصب وأعيط وأصرخ.

جلست أرضًا على الرصيف وهي تتأمل القمر ثم استطردت قائلة:

- وطبعًا طفلة بالمنظر دا مادة خام مغرية جدًا للتنمر في مدرستي، اتبهدلت كتير وأنا صغيرة بجد مش عايزة أقولك.. زمان كمان الناس مكنش عندهم وعي عن الموضوع ومكنش منتشر زي دلوقتي.. الناس مكنوش فاهمين غير إني غريبة عنهم.

ربتُّ على ذراعها ببطء وأنا ما زلت أحاول استيعاب الحديث:

- طب ليه مفهمتنيش الموضوع دا عشان مكناش رحنا مكان هيضايقك كدا؟

- حسيت إنك متحمس أوي للحفلة.. وأنا كنت.. يعني كنت حابة أكون معاك.. وتوقعت إنها ساعة هتعدي بالطول والعرض.. أنا آسفة.

تسارعت ضربات قلبي لدى سماعي جملتها "كنت حابة أكون معاك" وحتى أنني لم أسمع بقية الجملة. اضطربت مشاعري بشدة وتصارعت بداخلي، حتى صارت تهشم بعضها البعض، كم أود أن أصارحها بمشاعري الآن، لكنه ليس بالوقت المناسب بالتأكيد، بينما أكملت هي حديثها غير عالمة -الحمقاء- بما يدور بخلدي الآن:

- أنا معنديش توحد بالمعنى المفهوم للتوحد، أنا عندي بس بعض السمات، هشرحلك بصورة أبسط.. الإنسان عشان نقدر نقول عليه إنسان توحدي لازم يكون فيه ٦ سمات من سمات التوحد، أنا عندي ٣ سمات بس.. عدم احتمالي للزحمة والأصوات العالية دا شيء خارج عن إرادتي للأسف. لعلمك أنا كدا كمان اتعلمت ازاي أسيطر على خوفي شوية.. أنا كنت أسوأ من كدا بكتير.

ابتسمت بهدوء وأنا أتأمل عيونها الجميلة والدموع التي تجاهد كي لا تنحدر من مقلتيها. وودت لو كان باستطاعتي أن أعانقها، لكنني خجلت، فأطلقت زفرة حارة وقلت:

- بس قررتِ إنك هتيجي الحفلة عشاني؟

هزت رأسها موافقة وهي تبتسم.

- أروى..

- ها؟

- هو أنا عايز أقولك على حاجة، أنا كنت ناوي أتكلم معاكِ النهاردا بعد الحفلة عن حاجة مهمة عشان توقعت موودك هيبقى حلو يعني، بس مش عارف إذا كان الوقت دلوقتي مناسب ولا لا.

هزت كتفيها ونظرت إليَّ باهتمام:

- قول يا هاني.. أنا خلاص بقيت كويسة متقلقش.

- متأكدة؟

هزت رأسها إيجابًا ونظرت إليَّ باهتمام منتظرة أن أبدأ حديثي. بلعت ريقي بصوت مسموع وتصبب وجهي عرقًا فجأة عندما اكتشفت أنني نسيت كل الحديث الذي رتبته لأقوله لها، بالرغم من مراجعته أكثر من مرة في ذهني هذا الصباح، إلا أنني توقعت أننا قد نضطر إلى تأجيل الحديث، كما أن مشاعري مختلطة بشدة، لقد تسبب حديثها السابق في مزيد من التوتر، كم أكره أن أجهل بطبيعة أي شيء أنا مقدم عليه! وأنا لما يسبق لي أن قرأت عما تحدثت عنه، معلوماتي عن التوحد لا تتعدى معلومات أمي عن تشكيل فريق ليفربول، لكنني.. لكنني كذلك أحب وجودها بحياتي.. أحب صوتها الرخيم وهي ترد ناعسة على الهاتف، ورائحة شعرها عندما يتطاير ليداعب أنفي وأنا أسير إلى جوارها، دعابتها المعقدة التي لا أفهمها بسهولة.. لقد صرت أُدمن وجودها ولا أطيق فكرة فقدها.

- هاني!

قاطعت حبل أفكاري بصوتها فقلت بدون تفكير:

- كنت عايز أقولك إني مبسوط معاكِ.

ابتسمت بحياء، فأكملت حديثي وأنا أتأمل وجهها الطفولي يتدرج بحمرة الخجل:

- أنا عارف إن ممكن بدري شوية.. أو مش بدري؟ بصي.. الحقيقة أنا مش عارف إذا كان التوقيت صح ولا أنا كدا متسرع.. أنا حقيقي معنديش خبرة في مواضيع الارتباط.. مش هضحك عليكِ أو أترسم عليكِ، أصلًا دا أكتر شيء مريحني معاكِ إني على طبيعتي مش مضطر أمثل عشان أبهرك.

- أنا حابب أكون معاكِ يا أروى.

اتسعت ابتسامتها الملائكية وزاد احمرار وجهها خجلًا.. وقالت همسًا:

- وأنا كمان عايزة أكون معاك يا هاني.

إذن، هي تبادلني نفس المشاعر.. تجرأت وامتدت يدي على استحياء واحتضنت كفها الصغير المنمق فزادت ابتسامتها إشراقًا.

- وردة يا باشا.. يا رب تتجوز الأمورة اللي معاك.

***

الأيام التالية كانت باسمة للغاية، تحدثنا كثيرًا عن خططنا المستقبلية، لم تكترث هي للأمور المادية، وقد كان هذا شيئًا مريحًا للغاية، فأنا لست معدمًا تمامًا لكنني لا أملك الكثير أيضًا، لدي فقط شقتي الصغيرة وبعض المدخرات التي كنت أقطتعها من راتبي شهريًا منذ قررت أنني أريد أن أتزوج.

أما ما كان يقلقها كثيرًا هو نظرة أهلي لحالتها الاجتماعية وظروف معيشتها، أن أروى وحيدة كالثعالب، نشأت وحيدة منذ مراهقتها، لا أهل لها بعدما توفي أباها ولحقت به أمها بعد ثلاث سنوات، هناك خالة قعيدة تعيش في الإسكندرية بدار رعاية لسوء أحوالها الصحية، تزورها أروى كل شهر مرة. هناك بعض الأصدقاء الذين يمكن عدهم على أصابع يد أروى اليسرى التي تفتقد إصبعًا، أي أنهم أقل من خمسة أفراد مثلًا ومعظمهم خارج البلاد. لكنني طمأنتها لأن أمي لن تكترث لشيء سوى سعادتي، ولقد وجدت ضالتي أخيرًا.

- وبعدين ربنا يخلي خالتو، ممكن أروح لحد عندها أطلب إيدك منها.. إيه رأيك؟

هزت رأسها بأسى قائلة:

- خالتو عفت عندها زهايمر.. حالة متقدمة جدًا، مبقتش عارفاني حتى.

ودارات عينيها قبل أن تنحدر دمعة حارة من مقلتيها، فربتُّ على كفها مواسيًا. لم أحب كثيرًا إصرارها على السكن في بيتها الذي ورثته عن أمها، لكنها تحججت بارتباطها الشديد بالمكان، واقترحت عليَّ أن أعرض شقتي للإيجار.

- ونستفيد بفلوس إيجارها في البيت..

- هنبدأ حياتنا بفيلا في المعادي؟

- المكان حقيقي هيعجبك.

- بس اللي فهمته منك إنه قديم جدًا!

- وكبير جدًا، وفيه جنينة حلوة بحب أقعد فيها.. قديم آه بس شوية دهانات وعفش جديد هيبقى تحفة.

صمت وأنا أحاول أن أهضم الفكرة، ثم قلت لها:

- طب ما نقعد في شقتي ونأجر البيت بتاعك وفلوس الإيجار خديها كلها ليكِ!

- مش هينفع.

- ليه؟!

- كدا.. مش هينفع.

قالتها بحدة نوعًا ما وأطلقت زفرة حارة وصمتت لبرهة ثم اعتدلت في جلستها قائلة بحماس مفاجئ:

- إيه رأيك تجيب طنط وليس وكريم وتيجوا تزوروني وتتفرجوا على البيت؟ وآهو أتعرف عليهم بالمرة!

نظرت إليها بصمت. كم يدهشني سرعة تغير انفعالاتها وتحول ملامحها من الضيق للبهجة في أقل من دقيقة، لكنني تجاهلت الأمر وهززت رأسي موافقًا، وقد كان موعدًا قريبًا.

***

"لقد وصلت إلى وجهتك".

قالها الصوت الآلي الصادر من جوجل، فوقفت أنا وليس أمام باب المنزل الذي أشار إليه الموقع المرسل إليَّ من أروى، وتلاحقت أنفاسنا، إنه ليس مجرد منزل قديم كما قالت أروى، إنها فيلا عريقة، تحفة معمارية ملأت الزخرفة جدرانها الخارجية فزينتها بسخاء، لعلها كانت تنتمي لأحد أفراد الأسرة المالكة قبل أن يتم تأميمها. الفيلا محاطة بحديقة كبيرة لكنها مهملة للغاية، تحتاج للكثير من الرعاية وبعض لمسات الاهتمام حتى تصير جنة خضراء. همست ليس في أذني:

- انت هتعيش هنا؟!

- المفروض..

- أنا موافقة طبعًا، دا مش بعيد آجي أعيش معاكم، دا قصر يا ابني.

ابتسمت وأنا أداري شعورًا خفيًا بالانقباض، لم أحب المكان منذ اللحظة الاولى.. بالرغم من كونه مبهرًا أكثر مما تخيلته.. أكثر مما ينبغي في الواقع. نظرت إلى لميس محذرًا:

- مفيش داعي نجيب سيرة ان ماما مجتش عشان مش موافقة إني أعيش هنا في بيت أروى وإنها قافشة وكدا ها؟ ماما مجتش ليه يا لميس؟ هتقولي عشان عيانة.

هزت رأسها متفهمة. تقدمنا بضع خطوات ومددت إصبعي لجهاز الاتصال الداخلي، فأجابني صوت أروى عبر جهاز الاتصال تدعونا للدخول ثم عادت تقول محذرة بمرح:

- متقلقوش من برونو لو هوهو عليكم.

ما هذا البرونو؟ كلب؟!

قطع حبل أفكاري صوت زمجرة غاضبة، فالتفتنا أنا ولميس ببطء لنواجه شيئًا ما، لا أجرؤ على وصفه بأنه كلب، فهو يشبه في تشريحه الجسماني الكلب الجيرمن شيبرد لكنه كان أقرب إلى المومياء المحنطة، مجرد جلد متقرح يغطي عظامًا بلا لحم أو شحم، تساقط شعره في الكثير من الأماكن، تفوح منه رائحة بشعة للغاية هي مزيج من رائحة فضلاته الملتصق بعضها بجسده ورائحة جلده نفسه المتقرح بسبب قلة النظافة، بينما تدلت سلسلة حديدية تقيد عنقه لسور الفيلا. وقد كان هذا الشيء غاضبًا بشدة ويزمجر متأهبًا للهجوم. سحبت

نفسًا عميقًا وأخذت أحسب بعيني المسافة بينه وبيننا وإذا ما كانت هذه السلسلة قوية بما يكفي أم أن حياتي سوف تنتهي الآن بين أنياب هذه المومياء الحانقة، وجهت له كلامًا بنبرة حاولت أن تخرج هادئة:

- اهدى.. اهدى خالص.

- دا مبينفعش معاه كدا.

جاءني صوت أروى من خلفي التي خرجت من البوابة حاملة عصا طويلة ودقت بها الأرض بعصبية بالغة، فزمجر الكلب مرة أخرى لكنها زجرته بالعصا، فابتعد خائفًا ليقف بعيدًا على قدر ما تسمح له السلسلة. تعجبت لأنها أخبرتني من قبل أنها تعاني من فوبيا الحيوانات. عبرنا الحديقة خلف أروى بعدما جذبتني لميس جذبًا لنبتعد عن هذا المشهد، فقد تسمرت مكاني من الدهشة، كيف وصل الكلب لهذه الحالة الشنيعة!

وبداخل المنزل استقبلتنا أروى بحفاوة شديدة بعدما أغلقت الباب خلفنا بحرص، رمقتها وهي تقبل لميس وتحتضنها بحب وتداعب شعر كريم الصغير، ثم نظرت لي مبتسمة وعقدت حاجبيها قائلة بعدما لاحظت وجهي الممتقع:

- إيه دا مالك؟

- إيه الكلب اللي برا دا؟ وازاي واصل للمرحلة دي؟

ارتبكت قليلًا وقالت بحرج:

- دا كلب لازق قصاد البيت من فترة ومش عايز يمشي، كل ما أفتح الباب ألاقيه عايز يدخل الجنينة ومش عارفة أمشيه.. كذا مرة أجيب حد يسربه بعيد عن البيت بيرجع تاني.. فجبت واحد ربطه في السور عشان ميحاولش يدخل البيت.. وبحط له أكل من بعيد كدا.

- إيه التصرف الغريب دا يا أروى؟ الكلب دا عيان جدًا يا عيني، ممكن يكون مسعور ويؤذيكِ! ازاي تسيبيه يوصل لكدا ومتبلغيش حد أو جمعية الرفق بالحيوان تيجي تاخده يتعالج ويبعدوه عن البيت بتاعك طالما مضايقك؟

انكمشت في مقعدها وقد شعرت أنها متهمة بشكلٍ ما فقالت لي بارتباك:

- طب ما أنا مش عارفة أقرب منه!

أطلقت زفرة حارة وقلت لها بهدوء:

- طيب.. أنا هجيب فريق من بتوع الرفق بالحيوان يخدروه وهوديه عيادة أعالجه، وبعدين نجيب حد ينضف المكان قصاد البيت، دا مخلي المكان بشع.

ابتسمت بعذوبة وهزت رأسها موافقة، ثم فتحت ذراعيها كالعصفور الصغير وقالت متسائلة:

- إيه رأيك في البيت؟

أجابتها لميس في الحال:

- تحفة طبعًا، هو كام أوضة؟ دا كبير أوي ما شاء الله!

ابتسمت أروى ببساطة بينما رمقت أنا لميس بنظرة حازمة ألا تفرط في إظهار انبهارها، ثم قادتنا أروى عبر الغرف لتريها لنا. لقد كان المكان مبهرًا بالفعل، يحتاج فقط لبعض التجديدات وإعادة طلائه ويمكنني أنا فعل ذلك بنفسي بالتأكيد، امتدت يدها الدقيقة تحتضن يدي برفق وهي تهمس:

- مقولتش رأيك!

- جميل يا حبيبتي.

- مقتنع؟

كدت أن أعترض لكن عينيها طالعتني في رجاء كالأطفال، فهززت رأسي بالإيجاب. ربما لا أشعر بالارتياح لفكرة الإقامة في منزلها، وأشعر بالتوتر من المكان نفسه، لكنني بالتأكيد سأفعل ما بوسعي حتى أرى ابتسامتها العذبة دائمًا.

- البيت كبير محتاجين نركب كاميرات ونظام حراسة طالما مفيش بواب.

فهزت رأسها موافقة.

***

في الأيام القليلة التالية، تمت خطبتنا في حفل عائلي بهيج كما يقولون في الجرائد. وقفنا معًا أنا وهي على سطح الباخرة النيلية نتأمل المدعوين الذين يتقاتلون على الطعام أمام البوفيه، وهم جميعًا أقاربي بالمناسبة، لم تبدُ سعيدة بالطبع وكانت تصر على عدم إقامة أي حفل، لقد ظلت تتملص من تحديد موعد الخطبة وتحاول إقناعي أنه لا داعي للحفل، فهي تكره مثل هذه المناسبات ولا تحب أن تكون محط أنظار الناس، لكنني لم أستطع أن أقنع أمي بالتنازل عن رغبتها في الحفل، فأنا ابنها البكر ولطالما تمنت هذه اللحظة، لكنني توصلت إلى حل وسط، فاكتفيت بدعوة أقرب الأقربين حتى لا يزدحم المكان مما قد يزعج أروى، كما حرصت أن يكون المكان مفتوحًا في الهواء الطلق حتى تستطيع أن تتنفس بدون أي ضغوطات.

ومع ذلك بقيت ممتقعة الوجه تنتفض كلما اصطدم بها أحدهم أو ارتفعت الأغاني قليلًا، ولم تكفِ عن سؤالي عن شكلها وكيف يبدو رداءها وإذا كانت مساحيق التجميل كافية أن أنها كانت بحاجة للمزيد، لم أصارحها أنني لم أحب كل هذه الأطنان من مساحيق التجميل التي تواري خلفها جمالها الطبيعي في حياء، لكنني لم أرِد أن أزيد الأمر سوءًا.

تأملتها وهي شاردة وشعرها يتطاير في الهواء، وقلت لها محاولًا تخفيف توترها:

- اليوم ماشي حلو مش كدا؟

هزت رأسها مبتسمة في كآبة وأسندت رأسها الصغير على كتفي، رائحتها الجميلة تطير عقلي، داعبت شعرها الناعم الموج بأناملي محاولًا تخفيف توترها، حين قطع لحظتنا الهادئة صوت أنثوي أخنف:

- يا أستاذة أروى إزيك؟ أنا هدير بنت خالة هاني..

التفتت لها أروى وصافحتها مبتسمة، فأكملت هدير حديثها:

- اسمحي لي أقولك بقى إني من أشد المعجبين بقصصك، اشتريت كل رواياتك، وحقيقي مبسوطة إني قابلتك أوي، يا ريتني كان معايا نسختي عشان تمضي لي عليها!

- ميرسي لذوقك بجد.. هنروح من بعض فين؟ أي وقت هاتي لي الرواية أمضيها لك.

- بس عندي سؤال محيرني.. ليه بقى الرواية الأخيرة الأحداث كانت كلها فلاش باك كدا؟ الأسلوب دا بيلخبط أوي، ومين اللي قتل سلمى البطلة أنا مفهمتش النهاية في الآخر؟

صمتت أروى قليلًا ثم قالت:

- لا انتِ بس محتاجة تقريها تاني بتركيز أكتر، دي النهاية واضحة جدًا.

- قريتها مرتين وسألت صحابي اللي قرأوها. لا لا، النهاية بجد محتاجة توضيح أكتر.. يعني مين اللي قتلها في الاتنين؟ ولا انتِ ناوية تعملي جزء تاني؟

بدا على أروى التوتر قليلًا وبررت بكلام غير مفهوم ثم نهضت فجأة مقاطعة الحديث واستأذنت لتذهب لدورة المياه، تاركةً هدير تنظر لها بدهشة. قالت لي هدير:

- هو أنا ضايقتها؟

- لا مفيش حاجة.. هي بس متوترة من أول اليوم معلش متزعليش.

انصرفت هدير في حرج ، وشعرت أنا بالقلق قليلًا. لمَ كل هذه العصبية غير المبررة؟ تأخرت أروى أيضًا، فاتجهت بهدوء لمكان دورات المياه، لكنني وجدتها عائدة بحركة عصبية، تنظر أرضًا حتى لا تلتقي عينها بعين أحد المدعوين.

- انتِ كويسة؟

- آه تمام، أنا بس.. حقيقي شايفة إن كفاية كدا.

- كفاية إيه؟

- الحفلة طولت.. وأنا قلت لك أنا مبحبش الزحمة والناس!

نظرت حولي لأتأكد أنه لا أحد يسمعنا، فقد كان صوتها مرتفعًا وحاد النبرات بشكل غريب لم أعتده من قبل، قلت لها بهدوء محاولًا امتصاص غضبها غير المبرر وأنا أبتسم:

- كاتبة مشهورة زيك مش المفروض تتعلم ازاي تتغلب على خوفها من الناس والزحمة؟ امال بتعملي إيه في حفلات التوقيع بتاعتك؟

قالت بعصبية:

- مبعملش حفلات توقيع يا سيدي.

ابتسمت لها محاولًا تهدئة عاصفة الغضب المفاجئة، وانتهت الأمسية بسلام.. نوعًا ما.

***

تأمل دكتور طه الكلب النائم في سلام وقال همسًا:

- ازاي وصل للحالة دي!

شرحت له ما قالته لي أروى، فهز رأسه نافيًا وقال وهو يمد سدادة أذن بداخل أذن الكلب ليفحصه:

- لا، الكلب دا مش غريب عن البيت، دا إحنا أخدناه من عند البيت بالعافية واضطرينا نخدره. غالبًا عاش في البيت دا لفترة عشان كدا مكنش عايز يبعد بسهولة لما خطيبتك حاولت تطرده أكتر من مرة.

واخرج السدادة من أذن الكلب وقربها من أنفه ليشمها و هو يهمهم بصوت منخفض:

- ممكن كان ملك لصحاب البيت اللي قبلها.. هو أصلًا عجوز جدًا، عمره تقريبًا ١٣ سنة.

تقلصت أنفي اشمئزازًا وقلت له:

- الله يقرفك! لا يا ابني، البيت طول عمره بتاع أروى وأهلها.. حاسب لا يعضك بس!

- ما أنا أكيد مخدره عشان أعرف أفحصه ونطهر البلا الأزرق اللي في جسمه دا، هيحتاج علاج فترة طويلة، دا غير الدعم النفسي.

- حاسه شرس جدًا وعصبي!

- من البهدلة اللي شافها.. دا بقاله شهور مربوط بالميت كدا ١٢ او ١٤ شهر.. لازم نبذل معاه مجهود كبير عشان يرجع يثق في الناس تاني.

- ماشي أنا معاك إن شاء الله.

- تحب لما يخف أعرضه للتبني؟

- لا لا تبني إيه! أنا هاخده يرجع يعيش معانا وأنا اللي هراعيه.

- مش خطيبتك مش عايزاه وبتخاف؟

- أيوة عندها فوبيا بس مكنتش عارفة تتعامل معاه عشان هي عايشة لوحدها، لكن أنا موجود وأنا اللي هراعيه.. متقلقش هقنعها.. حرام غلبان وأنا طول عمري نفسي أربى كلب.

- أنا من رأيي لازم تاخد رأيها الأول، اللي عنده فوبيا من الحيوانات مش سهل يتقبلهم بين يوم وليلة، والكلاب هايبر مش هادية زي القطط مثلًا وهتسيبها في حالها كدا.

- الجنينة كبيرة جدًا، هحجز له منطقة يبقى عايش فيها بعيد عن طريق الخروج والدخول بتاع أروى ومش هيخرج غير معايا.

هز كتفيه بمعنى أنه لا يعنيه الأمر، غادرت عيادة صديقي الطبيب البيطري واتجهت لمنزل أروى، فقد اتفقنا اليوم أن نحدد ألوان الطلاء الذي سوف نعيد طلاء المنزل به. مررت لأبتاع بعض الطعام لنا جميعًا، فأنا أعلم أن ليس وكريم هناك يساعدانها في ترتيب المنزل استعدادًا لطلائه.

أحب كثيرًا العلاقة الطيبة التي نشأت بينها وبين أسرتي الصغيرة، تحبها أمي كثيرًا وكريم الصغير لا يكف عن الحديث عنها وكيف أنها تحب اللعب معه

وتشجعه باستمرار على هواية الرسم بما أنها هواية مشتركة بينهما، فقط ليس كان لديها بعض الملاحظات..

- متزعلش مني يا هاني.. بس هي غريبة شوية.

- غريبة ازاي؟

وصمتت، لم تفسر أكثر، حاولت كثيرًا أن أستفهم عن قصدها لكنها صمتت ولم تجبني، كأنها لا تجد الكلمات المناسبة لتعبر عما يدور بخلدها، فتجاهلت الموضوع برمته. في الواقع، أنا أتفهم شعور ليس، إننا مترابطان للغاية منذ طفولتنا، لذلك ربما تشعر بغيرة دفينة تجاه أروى، ربما لا تحب كثيرًا فكرة زواجي وابتعادي عن المنزل، لكنها لا تستطيع التعبير عما تشعر به، فاختزلت مشاعرها في قلقها الخافت تجاه أروى. أعتقد أنني ربما يجب أن أسعى لتلطيف العلاقة بينهما.

طرقت الباب، ففتح لي كريم القرد الصغير متعجلًا وعاد لما كان يفعله ركضًا. تقدمت بضع خطوات، المنزل يبدو في حال مزرية، إضاءة صفراء كئيبة يبثها المصباح الوحيد المتبقي في الصالة بعدما خلعنا المصابيح الكريستالية باهظة الثمن قبل البدء في الطلاء، كما تتناثر علب الطلاء في كل مكان، بينما الأثاث الكلاسيكي تغطيه مفارش قديمة بيضاء حتى لا يتسخ من الطلاء، لكنه اكتسب مظهرًا مرعبًا كئيبًا بشكلٍ ما، فكان يبدو كشواهد القبور مع ضعف الإضاءة.

لم يبدد هذه الأجواء الكئيبة سوى صوت عبد الحليم الرخيم المرح يشدو "الحلوة برموشها السودا الحلوة"، ورأيت أروى تقف فوق مقعد خشبي على أطراف أصابع قدميها لتعلق بعض اللوحات التي قامت هي برسمها على الحائط الذي انتهت من طلائه، وقد ربطت إيشارب مشجر على شعرها المموج، فكانت تبدو كفلاحة إسبانية فاتنة، وقفت بجوارها ضاحكًا وساعدتها على النزول لتنظر في عيني بابتسامتها الخلابة. قلت لها:

- شكلك حلو بالمنديل دا!

اتسعت ابتسامتها فأخرجت باقة الزهور التي كنت أخفيها وراء ظهري وقبَّلت رأسها. دخلت لميس في هذه اللحظة وتنحنحت في حرج وتراجعت خطوتين للخلف، ابتسمت أروى بحياء بينما أشرتُ لها أنا أن تتقدم، ألقيت تحية متعجلة على مسمعي، ثم قالت موجهة الكلام لأروى:

- خليني أراجع معاكِ كدا تاني يا أروى.. الكراتين اللي على اليمين انتِ عايزاها لكن اللي على الشمال مش عايزاها، صح كدا؟

هزت أروى رأسها موافقة:

- يعنى الكتب اللي في الكراتين دي كلها مش عايزاها يا أروى؟

ووضعت صندوقًا مليئًا بالكتب أرضًا أمامنا، ألقت أروى نظرة عابرة على الصندوق وقالت:

- لا.. مش محتاجاهم، لو عايزة منهم حاجة خديها حبيبتي أنا عارفة إنك بتحبي القراءة.

عبثت لميس في محتوي الصندوق بفضول، فوجدت الكثير من الكتب بعضها لأدباء عظماء، فتربعت أرضًا منبهرة تزيل الغبار عن الأغلفة بيديها لتقرأ العناوين بامتنان، ابتسمت أروى وهي ترى سعادة لميس وعادت تنظر لي متسائلة:

- عملت إيه مع الكلب؟

- هو برونو دا كان عايش هنا؟

- هنا فين؟

- هنا في البيت؟

- لا.. دا كلب تايه تقريبًا ولزق لي قصاد البيت.

- امال عرفتي اسمه ازاي؟

- مش اسمه..

وأخذت تزيل الغبار عن إحدى اللوحات وهي تتحدث:

- دا اسم عشوائي جه في بالي يعني بدل ما يفضل ملوش اسم كدا وأنا بتكلم عنه.

- همم ماشي.

- الدكتور بيعالجه؟

- آه ولما يخف هجيبه.

استدارت بحركة عنيفة وقد اتسعت عيناها بوحشية هامسة بعصبية:

- أنا ما صدقت خلصت منه، تجيبه فين؟!

- مش هخليه يضايقك يا حبيبتي خالص، هعمل له كورنر في الجنينة كدا وأنا اللي هنضف له وأراعيه وأخرجه يتمشى برا..

أشارت بإصبعها أمام أنفي بعصبية:

- الكلب دا مش هيعتب باب البيت!

كدت أن أستمر في تبريري لكن ليس قطعت حديثنا قائلة وهي تحمل رزمة من الأوراق اخرجتها من الصندوق.

- الورق دا مهم يا أروى؟ شكلها قصة كنتِ بتكتبي فيها ولا إيه؟

أخذت أروى الأوراق منها وتأملتها بفضول، مددت رأسي أتأمل الصفحة الأولى.. عنوان كبير يتوسط الصفحة مكتوب بخط اليد (العائدة).. ثم بخط صغير (الجزء الثاني).

- إيه دا انتِ عاملة جزء تاني لرواية العائدة؟

لم تجِب سؤالي، بينما قالت لميس معقبة على كلامي بفهم:

- عشان كدا نهاية الكتاب كانت مفتوحة ومش مفهومة!

- امال ليه لما هدير سألتك عن النهاية مقولتيلهاش؟

لم تجِب سؤالي مرة أخرى وطال صمتها وهي تفر في الصفحات ثم نظرت لنا مبتسمة وقالت:

- أنا دوخت على الورق دا بجد.. ميرسي يا لميس حقيقي إنك لقيتيه.

وقبَّلت خد لميس ووضعت الأوراق على الطاولة، وأخذت من يدي شنطة الطعام الذي ابتعته واختفت لدقائق، ثم عادت تحمله موزعًا على أربعة أطباق.

جلسنا نأكل بصمت، رمقت لميس بطرف عيني، كانت لا تأكل.. تعبث بطعامها بشرود وتختلس النظارات الجانبية لأروى.. نظرات لم أفهمها، لكنها بالتأكيد ذات مغزى.

***

- البت دي فيها حاجة مش مفهومة!

جلست لميس بجواري مساءً، فأغلقت اللابتوب ونظرت لها عاقدًا حاجبي:

- بت مين؟

- أروى!

- أروى بقت بت! مالها يا ست لميس؟

صمتت وقد ظهرت الحيرة على ملامحها وأخذت تشير بإصبعها في الهواء علامة على اللا شيء ثم قالت:

- أنا حقيقي مش عارفة.. بس هي بجد غريبة.. أنا كل ما بتكلم معاها عن الكتب بتاعتها بلاقيها تايهة كدا.. مش مركزة.. ردودها على الأسئلة مش منطقية، فيه حاجة غلط. شفت النهاردا لما سألناها عن الورق اللي لقيته في الكراتين اللي كانت هترمي؟ رد فعلها مبهم جدًا، زي ما يكون مكنتش تعرف حاجة عن الورق.. دا الجزء التاني من الرواية يا هاني! انت متخيل إنها كانت مسقطة الورق دا وهترميه؟

شردت وأنا أستمع لحديثها العجيب الذي بالرغم من غرابته يبدو لي منطقيًا نوعًا ما، وتذكرت ما حدث يوم الخطبة عندما انسحبت من النقاش مع هدير بطريقة عصبية غير مبررة.. هناك شيء غريب! ليس ما زالت تتحدث:

- مش يمكن تكون دي مش قصصها؟

- ازاي يعني؟!

- تكون سارقة المحتوى من أي كاتب تاني.. متبقاش أفكارها يعني، كاتب مغمور مثلًا أو كاتب من دولة بعيدة عشان تضمن إن محدش من مصر يكون عدى على كتابه، فيه ناس كتير أوي بتعمل كدا.

- إيه الـ أي كلام دا يا ليس؟!

تنهدت وقالت بهدوء:

- بص.. أنا عارفة إن الموضوع حساس طبعًا وأنا حقيقي آسفة إني بتكلم عن أروى كدا، بس...

قاطعتها بعصبية:

- وحتى لو.. همشي معاكِ للآخر.. اللي هيسرق محتوى وينسبه لنفسه دا، معقول مش هيبقي عارف المحتوى دا بيتكلم عن إيه؟ حتى عشان يوم ما يبقى في حفل توقيع للكتاب ومضطر يتكلم مع الناس عن كتابه ميتكشفش. إيه؟ غبية للدرجة دي؟!

صمتت وارتسمت على ملامحها الحيرة مجددًا وقد بدا كلامي الأخير منطقيًا للغاية. نهضت لفراشي وتركتها، قضيت وقتًا لا بأس به محاولًا طرد كلامها من رأسي، لكن هيهات، ربما يبدو كلامها لا رأس له ولا ذيل، لكنه أثار العديد من التساؤلات في نفسي.

لا أذكر متى غفوت، لكنني استيقظت متأخرًا ورأسي يوشك على الانفجار، أعددت القهوة على عجل حتى ألحق بموعد عملي، فأنا في غنى عن خصم التأخير. توقفت لثوانٍ أمام مكتبتي المعلقة المكتنزة بالكتب وأنا أصفف شعري بشرود، أخذت عيني تمسح العناوين حتى وجدت ضالتي، كتاب (العائدة) لأروى، سحبته مسرعًا ووضعته في حقيبتي، أعتقد أنني بحاجة لإعادة قراءته بتمعن.

***

أمضيت اليوم في عملي أتهرب من مهامي وقد شرد عقلي مئات المرات، وجدت أنني أختلس النظرات مرارًا للرواية التي اكتسبت وجودًا نفسيًا قويًا، أشعر أنها تراقبني وأنا أعمل! مدت يدي ببطء لألتقطها من بين الأوراق وأنا أتلفّت حولي. حسنًا، لقد قلّت مهام العمل.. لا أحد يراني، ربما يمكنني قراءة بضع صفحات الآن، أريد أن أراجع أحداثها وأناقش أروى بها.

تصفح سريع سوف يفي بالغرض إذن. لكنني وجدتني أغوص في تفاصيل الأحداث المشوقة حتى الثمالة، وأنا أدق بقلمي على المكتب بعصبية، قلمي المفضل الذي أحضرته معي من المنزل، أريد أن أدون بعض الملاحظات الدقيقة عن الأحداث.

حسنًا، أعترف أن أروى كاتبة جيدة حقًا، وتذكرت أنني لطالما أحببت أسلوبها المشوق، وقدرتها على الوصف، شعرت بإجهاد في حدقتي عيني، فتركت الكتاب وأغمضت عيني قليلًا.

- اللي هيسرق محتوى وينسبه لنفسه دا، معقول مش هيبقى عارف المحتوى دا بيتكلم عن إيه؟ حتى عشان يوم ما يبقى فيه حفل توقيع للكتاب ومضطر يتكلم مع الناس عن كتابه؟

تذكرت ما قلته للميس أمس، فتركت الكتاب والتفت لشاشة الحاسوب وفتحت موقع اليوتيوب لأبحث عن ندوات لأروى أو حفلات توقيعها لكتبها، قاطعني حسام زميلي يستعجل بعض الأوراق فزجرته بغضب، ابتعد الفتى مندهشًا وهو يضرب أخماسًا في أسداس.

- أنا مبعملش حفلات توقيع يا سيدي.

قفزت جملة أروى لرأسي قبل أن أضغط زر البحث في موقع اليوتيوب، فشعرت بخيبة أمل وعدلت عما كنت أبحث عنه وأنا أتأمل الجملة التي كتبتها في مستطيل البحث باليوتيوب. والتفتت للكتاب وعدت للقراءة مجددًا.

وعند وصولي للصفحة الأخيرة، نظرت للساعة، إنها الرابعة عصرًا! حسنًا، لقد انتهيت من الرواية في ساعتين ونصف، إنه وقت قياسي لقارئ بطيء مثلي، امتلأت الورقة أمامي بالملاحظات والأسئلة وبعض الاقتباسات.

"التأخر في الانتقام يجعل الضربة أشد قسوة".

وضعت خطوطًا عريضة أسفل هذه المقولة التي جاءت على لسان بطلة الرواية أكثر من مرة، وهي اقتباس للمخرج الأمريكي جون فورد. اعتقد أنني جاهز تمامًا لمناقشة كاتبتي العزيزة في روايتها التي تثير الجدل لدى الجميع. عدت أدق بالقلم على سطح المكتب مجددًا ثم بدأت أجمع أشيائي استعدادًا للانصراف، لقد بددت الرواية ملل ساعات العمل الطويلة، وأنا أشعر بامتنان حقيقي لها.

عدلت من وضع حقيبتي حتى أستطيع أن أحشر فيها باقي أشيائي حشرًا، فلا طاقة لديَّ لترتيبهم، ضغطت الحقيبة على زر البحث في لوحة المفاتيح عن (حفلة توقيع كتاب العائدة) الذي لم أكن قد مسحته من نافذة البحث بعد، لم يستغرق الأمر سوى ثانية واحدة حتى وجدت أمامي قائمة لقاءات صحفية وحفلات توقيع لأروى.

***

تطلعت بذهول لكل هذه الفيديوهات، ثم فتحت أول فيديو لأتطلع لوجهها الجميل، تبتسم للمحاور، تبدو أنحف هنا وشعرها لم يكن مموجًا، بل ناعمًا يتطاير بفعل الهواء. نظرت لتاريخ الفيديو، إنه يعود لأربع سنوات ماضية، ربما لذلك تبدو مختلفة، الكثير من الحديث مع الكاتب الشهير الذي يجلس بجوارها يحاورها (لا أذكر اسمه)، ترد بصوتٍ رقيقٍ واثقٍ وتُكثر من استخدام اللغة العربية الفصحى في وسط حديثها العامي، أراها تحب الميكروفون بشدة، تتحدث بمزيج من الثقة والقوة رغم صوتها الذي خرج أرفع من المعتاد، تحدثهم عن غلاف الرواية وترفعه أمام المشاهدين قائلة وهي تبتسم:

- أنا كنت حابة الألوان تكون أغمق من كدا عشان تناسب أحداث القصة السوداوية، لكن كان للمصمم رأي آخر بقى.

قاطعها المحاور قائلًا:

- أنا كنت فاكر إن انتِ اللي راسمة الغلاف بما إني أعرف إنك فنانة شاملة!

- لا أنا مبعرفش أرسم، الرسم موهبة جميلة للأسف مش عندي، رغم إن أمي الله يرحمها كانت رسامة، لكن أنا ما ورثتش عنها هذه الموهبة الراقية.

- بس بتلعبي مزيكا في باند؟

ضحكت خبأت وجهها بكفيها مصطنعة الخجل ثم قالت:

– دا انتم عارفين عني كل حاجة بقى! بلعب درامز أيوة في الباند بتاع أصحابي.. إحنا لسه في بداية المشوار وبنعمل حفلات في ساقية الصاوي على الضيق كدا.

لم أسمع باقي حديثها فقد طار عقلي. المزيد من الألغاز، أم أقول الأكاذيب!

لا حفلات توقيع! إذن، ما هذا الذي أراه؟!

لا تجيد الرسم! ماذا عن كل هذه اللوحات التي تعلقها في منزلها وهي مزيلة بتوقيعها؟ هل هي مسروقة أيضًا؟

وتعزف الموسيقى كذلك؟ وآلة موسيقية من ذوات الصوت العالي المدوي! أين ذهبت سمات توحدها إذن؟!

لم يحسم الفيديو أيًا من الأسئلة التي اشتعلت بداخلي، بل إنه أضاف المزيد من المخاوف، وبقي السؤال الذي يُلخص جميع مخاوفي؛ لماذا تزيف أروى الحقائق؟!

***

عرجت على طه وأنا في طريق عودتي للمنزل، استقبلني برونو على باب العيادة بحفاوة وهو يقفز ويحتضنني، لقد مرَّ شهران ونصف تقريبًا وتحسنت صحته بشكل لا بأس به، ما زال نحيفًا بدرجة مرعبة، لكنه سوف يزداد صحة

مع الوقت، اعتدت على زيارته ومساعدة طه في علاجه وإطعامه، تعلقت به كثيرًا وصار هو ينتظرني على باب العيادة دائمًا.

- عيني عليكم باردة.. خلاص بقيتوا أصحاب!

- أنا سحري لا يقاوم يا ابني..

- يا وللد.. طب مستعد بقى يا ساحر عشان تاخده معاك؟

- إيه؟ على طول كدا!

ضحك طه وقال لي:

- دا مشرَّف عندي بقاله فترة طويلة يجي شهرين باين والحمد لله بقى عال العال.. كنا فين وبقينا فين!

شعرت بالذعر، فقد كنت أتوقع أن يبقيه طه عنده حتى يحين موعد زفافي وأستطيع أن أنقله إلى الحديقة. أما الآن، فكيف أقنع أمي بأن أُبقيه بمنزلي الصغير؟ وكأنما سمع أفكاري، فقال معترضًا:

- لا ما أنا مش هقدر أقعده في الشلتر أكتر من كدا لأن عندي حالات تانية حرجة محتاجة مكان.

- شهر كمان يا طه.. أنا هتجوز كمان شهر والله!

- والله فيه حالات محتاجة مكانه يا هاني مش بإيدي.. قولي لو مش هتاخده، فيه واحدة شافته وعايزة تتبناه.

نظرت لبرونو ولم أستطع مقاومة نظرة الرجاء في عينه وكأنه فهم حديث طه.

- لا هاخده طبعًا.

عدت إلى منزلي ذلك اليوم في ساعة متأخرة حتى أتأكد من نوم أمي، وأدخلته لغرفتي، وكأنه كان يعلم أننا متسللين، لم ينبح وجلس مكانه لا يحرك ساكنًا، خرجت من الغرفة متسللًا لأحضر بعض الطعام لي ولضيفي المهذب، أغلقت باب الثلاجة بحذر مثل القط المتحفز.

- إيه الكلب اللي معاك دا يا هاني؟

قفزت هلعًا واستدرت لأجد كريم، القرد الصغير، يقف خلفي ضاحكًا، إنه استطاع إفزاعي، فأشرت له غاضبًا أن يصمت حتى لا تستيقظ أمي ويحدث ما لا يحمد عقباه. ساعدني في إطعام برونو وجلس بجواري على الفراش يحكي لي عن يومه الممتع الذي قضاه مع أروى، فقد تغيب من المدرسة، ومرت أروى صباحًا لتأخذه، حيث أنه يساعدها في الدهانات مقابل أجرٍ خصصته له بعدما علمت أنه يريد أن يعمل حتى يستطيع شراء هاتف محمول جديد. ابتسمت وأنا أتأمله يتحدث بفخر عن اتقانه لمهنته الجديدة، وكيف أنه تعلم كيفيه الطلاء بحرفية بعد مطالعة عشرات الفيديوهات على اليوتيوب. ثم اعتدلت في جلستي وسألته:

- ليس ما راحتش معاك؟

هز رأسه بحيرة قائلًا:

- لا.. بتقول إنها مش حابة تروح هناك كتير، وكمان قالت لي ماتروحش كل يوم كدا وخلي عندك كرامة، هو أنا لما أساعد أروى يبقى معنديش كرامة يا هاني؟

عقدت حاجبي وأجبته:

- لا طبعًا.. مساعدة أي إنسان عمومًا مش أروى بس، شيء جميل يا كريم، معلش متزعلش من ليس بس يمكن فيه حاجة تانية مضايقاها في الكلية ولا زعلانة مع ماما ولا حاجة!

ابتسم بخبث وهمس قائلًا:

- سيبك بقى من الكلام دا.. النهاردا نزلت المخزن بتاع بيت أروى ودخلت الأوضة اللي دايمًا مقفولة دي.

صمت وعقدت حاجبي بعدم فهم:

- إيه الأوضة اللي دايمًا مقفولة دي؟!

اعتدل في جلسته ورفع كفه في الهواء ليصف لي بدقة:

- بص.. المخزن اللي تحت الفيلا كبير أوي بنفس مسافة البيت وكله كراكيب وعفش وحاجات قديمة، بس هو كله مفتوح عادي، ولكن فيه بقى أوضة صغيرة كدا تحت السلم ومقفولة بمفتاح، والمفتاح شفت أروى بتحطه

تحت تمثال كبير في ركن المخزن، ولما كان فيه ست بتنضف البيت ونزلت تروق المخزن أروى قالت لها متقربيش من الأوضة دي.

- واشمعنا الأوضة دي؟ فيها إيه؟

- ما أنا كنت هموت وأدخلها بقى..

- طبعًا انت هتقولي؟ جينات القطط رهيبة عندك.

- خليتها نزلت تجيب أكل واتسحبت بقى ونزلت أخدت المفتاح ودخلت.

ثم صمت ليراقب ملامحي وليضفي بعضًا من التشويق على أحداث مغامرته، فرفعت حاجبي لأحثه على الاسترسال، أكمل بلهجة مسرحية:

- ملقتش أاااي حاجة.

وأطلق ضحكة عالية:

- يعني الأوضة فاضية؟

- لا.. فيها كراتين.

- أمال إيه فاضية دي؟

- أصل حسيت من كتر ما هي قافلة عليها كدا إنها مخبية فيها حاجة من اتنين.. يا دهب.. يا قتيل!

نظرت لكريم ذا العشرة أعوام وأنا أبتسم بإعجاب، من أين له بهذا التفكير الجهنمي المنطقي؟ (بالرغم من كل شيء).

- مش شرط يعني، هي مش مغارة علي بابا، طب والكارتين فيها عفش برضة؟

هز كتفيه بحيرة قائلًا:

- لا كلها صور قديمة.. مش فاهم ليه مش معلقاهم أو شايلاهم عندها فوق في درج البوفيه زي ماما ما بتعمل.. وفيه كرتونة تانية كلها ورق مستشفيات وعلى وشها دفتر كبير من اللي بيتكتب فيه اليوميات دي.

- مذكرات آه.. بتاعت أروى؟

- لا.. لو كانت بتاعت أروى كنت جبتهالك.. بتاعت واحدة اسمها نادية، مكتوب في الغلاف من جوا نادية.

- هممم مين نادية؟!

- مش عارف بقى.. وفيه كرتونة تانية مليانة جوابات جوا الأظرف بتاعتها.. مقفولة خالص متفتحتش.

- دا انت فليت البوكسات بقى!

- لا.. دا كل دي بصة سريعة كدا في الزربو.

- الزربو؟!

- بصة سريعة يعني، بص أنا سرقت لك حبة صور من الكرتونة.

- ما شاء الله! يا زين ما ربيتي يا زينب.. يعني نقاش الصبح وحرامي بعد الظهر؟ الله يخربيتك.. ورِيني..

- بطل تضايقني لأحسن أقول لماما والله!

ضحكت وأنا أراقب حماسه الذي زاد من شعوره بالأهمية، ثم ركض لحجرته عائدًا حاملًا لي ألبومًا مكتنزًا مليئًا بالصور الفوتوغرافية الملونة.. تبدو قديمة نوعًا ما. فتحت الألبوم وابتسمت وأنا أتطلع لصور أروى وهي مراهقة لم تتعدَ الخامسة عشر بعد.

- يا قرد!

ابتسم بفخر وقال:

- الصندوق دا كلههه ألبومات صور يا هاني.. أخدت واحد من على الوش.

نظرت له لائمًا:

- طب وهو ينفع نسرق حاجة مش بتاعتنا؟!

- دي صور يعني.. هو أنا سرقت فلوس! وبعدين هنتفرج عليهم وهرجعهم بكرة تاني.

لم أقتنع بمنطقه هذا، لكن الفضول قادني لأرى الصور التي سرقها.. كلها لأروى في مراحل عمرية مختلفة.. رباه! لقد كانت شديدة الجمال حقًا! لم تكن سوداء الشعر بعد، عرفت أن اللون الأسود هذا ليس إلا صبغة كما قالت هي لي، لون شعرها الأصلي أفتح ويعكس ضوء الشمس بوضوح في هذه الصورة، بني لامع بلون الشوكولاتة، ناعم وليس مجعدًا، وعيناها العسلية تشتعل بعنفوان المراهقة وبشرتها العاجية...

مهلًا! عيناها عسلية! ها أنا مجددًا أقف حائرًا أمام تلك العيون التي يختلف لونها في الصور عن الحقيقة تمامًا! قربت الصورة من عيني، لا شك أنها عسلية ولا تميل للخضرة بتاتًا، غريب هذا! لم تكن الصورة مثبتة جيدًا من أسفل، فرفع كريم طرفها لأعلى ليجد كتابة بظهرها.

- بص! فيه تاريخ في ضهر الصورة كمان..

قالها كريم وهو يقرأ ما كُتب بخطٍ أنيق للغاية، ربما كان خط أمها، لا أدري:

- أروى.. صيف ١٩٩٩.

رأيت صورةً أخرى تبدو فيها أصغر سنًا، تجلس بها على الأرجوحة وقد اتسعت ابتسامتها لتظهر أسنانها المتساقطة بعضها، وامتد ذراعها لأعلى لتمسك بحبال الأرجوحة جيدًا حتى لا تسقط (أروى.. ١٩٩٥).

وتوالت الصور والتواريخ وأنا أبتسم.. صغيرتي الفاتنة الغامضة، صغيرتي التي تكذب كثيرًا لسببٍ غير مفهوم.

وجدتني أبتسم وأنا أشاهد صورها وكأنما تبخرت كل شكوكي وأفكاري الصباحية المزعجة بصددها، لا أعلم إذا كنت تحت تأثير سحرٍ ما، أم أنني أُحبها إلى هذا الحد، يكفي أن أرى وجهها البريء حتى أنسى جميع قلقي وأفكاري السوداوية تجاهها. ثمة صورة لها وهي تجلس على ركبتها و... يا للعجب! تحتضن جروًا صغيرًا في سعادة بالغة!

- هو دا برونو؟ دا نفس النوع!

قاطع كريم أفكاري فنظرت له مبتسمًا في عدم فهم، لكنه عاد ليغمغم كأنه يجيب عن أفكاري المضطربة بغير قصد:

- يبقى أكيد جالها فوبيا الحيوانات دي وهي كبيرة!

- يمكن!

لم أجادله كثيرًا.. كانت قد ذكرت أن كلبًا ما تسبب في قطع إصبعها عندما كانت في العاشرة من عمرها، لكنها تبدو لي أكبر في تلك الصورة التي تحتضن فيها الجرو، كاملة الأصابع!

رأيت صورة أخرى، تجلس أمام لوحة فنية لمنظر طبيعي هادئ وتمد يدها بالفرشاة لتضيف بعض الألوان للوحة، ترسم!، ترتدي ثوبًا أبيض فضفاضًا يناسب لون بشرتها العاجية وقد انحسر كُم الثوب في نعومة ليكشف عن

ساعدها الرفيع الذي يعتليه كفها الدقيق ذو الأربعة أصابع، إذن هذه الصورة بعد حادث الكلب! شعرها يبدو مختلفًا، لونه أغمق ومتموج قليلًا، وتبدو أكثر اكتنازا كذلك هنا، قدرت عمرها بـ ١٨ عامًا مثلًا، يبدو أنها اكتسبت بعض الوزن بعد مرحلة المراهقة، حاولت قلب الصورة لأرى تاريخها، لكنها على عكس الصور السابقة كانت مثبتة جيدًا من أسفل بلاصق عريض للصفحة الورقية.

صورة أخرى تبدو أصغر سنًا.. وهي ترسم أيضًا وتجلس في حديقة ما لا تبدو أنها حديقة المنزل، وترتدي نفس الثوب الأبيض، لكنها تضع شالًا يبدو صوفيًا.. وهناك سيدة تجلس جوارها ترتدي ثوبًا أبيض قصير كثوب الممرضات. حسنًا، لا مجال للشك.. شعرها هنا أيضًا يختلف عن الصور الأولى، أسود مموج يغطي ضهرها، لكن هل التقطت هذه الصور الأخيرة في مشفى؟

وجدت أن الصورة أيضًا مثبتة بشدة، فلم أستطع أن أعرف تاريخ الصورة، لا أفهم شيئًا.. هل دخلت أروى للمشفى في وقتٍ ما؟

نظرت لكريم الصغير، فوجدته قد غفى بعدما أراح رأسه الصغير على الوسادة بجواري وتركني في حيرة مع أفكاري.

***

في الصباح الباكر، اتصلت بأروى حتى أستأذنها في إحضار برونو ليبقى في حديقتها هذا الشهر، متعهدًا بأنني سوف أتكفل برعايته كليًا، بدايةً من الطعام والشراب مرورًا بالنظافة، وأنني سأضع سورًا عاليًا لأُحدد إقامته في جزء من الحديقة، فصمتت لبرهة ثم وافقت على مضض على أن يبقى خارج الحديقة، وقالت شيئًا ما عن حظها الحسن الذي سيجعلها تقضي أسبوعين من إقامة هذا البرونو في بيتها بالإسكندرية بعيدًا عنه. فقاطعتها مستفهمًا:

- اسكندرية؟ إيه دا ليه؟!

- معرض كتاب اسكندرية هيبدأ بعد بكرة.. أسبوعين بس.

- بجد؟ مسافرة بكرة؟ هو أنا ليه آخر من يعلم؟! هو إيه الغموض اللي انتِ فيه دا؟!

- أنا لسه مقولتش لحد على فكرة.. غموض إيه؟

- حد مين يا أروى؟ دا على أساس إن فيه حد غيري في حياتك؟ ويا ريتك بتفتكري تبلغيني في الآخر!

- أنا مش عايزة أسافر والله، بس مدير دار النشر شارط على الأدباء اللي ليهم كتب مشاركة لازم يحضروا.

مرت برهة من الصمت فعادت تسألني بهدوء محاولة تخفيف حدة الموقف:

- مالك يا هاني فيك إيه؟ إيه التوتر دا كله؟

كدت أنفجر بوجهها مطلقًا قذائف شكِّي بشكلٍ عشوائي لتصيب ما تصيب في كرامتها، لكنني تماسكت وأطلقت زفرة حارة قائلًا:

- مفيش حاجة.. طب بالنسبة إننا مخلصناش الدهانات والفرش؟ انتِ ناسية إن فاضل شهر على الجواز؟

صمتت هي وعدت أنا أيضًا لصمتي. حسنًا.. أعتقد أنها الفرصة المثالية لأخبارها إذن. قلت لها ضاغطًا على حروفي:

- أروى.. أنا شايف إننا نأجل الجواز شوية.

- هاني.. هو فيه حاجة؟

- انتِ اللي فيه حاجة؟

- حاجة زي إيه؟

- حاجة مخبياها عني!

طال صمتها حتى كدت أُجن أو أفقد أعصابي، لكنها عادت تقول بهدوء:

- حاضر يا هاني.. هحضر أسبوع واحد من المعرض وهرجع.

- الأسبوع دا هيفرق على فكرة، إحنا لسه مخلصناش دهان الحيطة، والفرش هيوصل الأسبوع الجاي.. لازم نكون مخلصين ومنضفين عشان

نفرش على نضافة، أنا حتى أخدت ٥ أيام إجازة عشان أبقى فاضي من أول اليوم.

عادت لصمتها ثم قالت:

- خلاص هسيبلكم المفتاح انت وكريم وليس، ظبطوا الدنيا على بال ما أنا آجي.

انقبض قلبي بقوة.. البقاء في هذا المنزل الكئيب لمدة أسبوع ليست فكرتي المفضلة عن قضاء إجازتي، لكن لم يكن أمامي خيار آخر.

- ماشي.. انتِ هتقعدي أسبوع كامل؟

- آه.

- ماشي، طب ممكن بس تخلي أم إسماعيل دي ولا أم حسين...

- أم محمد!

- أيًا كان اسمها.. تنضف بس الجنينة على قد ما تقدر عشان برونو لما أجيبه يقعد على نضافة؟

- حاضر.

عدت لصمتي ثم سألتها مرة أخيرة:

- أروى.. انتِ مش مخبية عني حاجة؟!

فقالت بعناد:

- لا يا هاني.. مش مخبية حاجة.

- ماشي.

وفي المساء، عدت إلى المنزل لأنقل برونو من بيتنا وسط سباب أمي الذي انهال كالسيول على رأسي ورأس كريم شريكي المستتر في الجريمة بسبب وجود برونو في حجرتي طوال تواجدي في العمل صباحًا. صعد برونو للمقعد الخلفي من السيارة وجلس كريم بجواره، فقلت له:

- كريم انت جبت معاك ألبوم الصور؟

- أيوة عشان نرجعه مكانه.. وصورت الصور بالموبايل كمان صور واضحة جدًا.

- ليه بقى إن شاء الله؟!

عدل من هندامه متظاهرًا بالأهمية وقال:

- عشان نبقى نعمل فيديو في الفرح يتعرض فيه صوركم وانتم صغيرين.. أنا هعمله بنفسي ونفاجئ رورو.

-رورو! ماشي يا سيدي ربنا يخلي لك رورو.

ثم تذكرت والتفت له مرة أخرى قائلًا:

- مفيش داعي أقولك إنك هترجعه في الزربيو زي ما جيبته.. مش عايز أروى تحس بحاجة، ها؟

- عيب عليك.

وصلنا إلى منزل أروى، فترجل برونو من السيارة وأمسك كريم بسلسلته، فمشى بجوار كريم بهدوء وطاعة. فتحت باب الحديقة فخرج بعض العمال:

- سلام عليكوو يا باشا.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أردت أن أسألهم عن هويتهم، لكنني فوجئت بزمجرة برونو عندما دخل كريم للحديقة، أروى كانت هناك تنظف الحديقة، وانتفضت في ذعرٍ عندما بدأ برونو بالنباح، وحاول أن يفلت من سلسلته ليهاجمها، لكنني جذبت السلسلة من كريم حتى لا يفلت من يده الصغيرة، وصحت أُحذر الكلب ألا يتمادى، وبالرغم من تحذيري له كان عصبيًا للغاية وقد تصلب جسده بعند، هربت أروى لداخل المنزل وصاحت من خلف الباب قائلة:

- اربطه برا الجنينة يا هاني!

لم تكن أروى قد انتهت من تنظيف هذا الجزء من الحديقة جيدًا بعد، فصحت أُحدثها من خلف الباب الزجاجي:

- المكان متنضفش كويس، هربطه هنا أحسن على نضافة.

فصرخت بعصبية:

- لاااا بيقعد ينبش في الأرض ويحفر ويبوظ النجيلة كل ما يدخل، اربطه في المكان اللي برا دا...

كدت أعترض مجددًا، لكني أحكمت وثاقه خارج المنزل في الشجرة مؤقتًا، واعدًا إياه أن أفك وثاقه عندما تسافر أروى فجر اليوم، وجلست جواره أربتُ على ظهره ليهدأ، ثم دلفنا أنا وكريم إلى داخل البيت. استقبلتني أروى باكية:

- شفت عمل إيه؟ هو بيكرهني جدًا.. والله ما هيقعد هنا ولا يوم.

- اهدي طيب بس، هو كلب مسالم، أنا حقيقي مش فاهم سبب عصبيته معاكِ، يمكن عشان ارتبط في ذاكرته إنك رابطاه فترة طويلة!

- أيًا كان.. أنا مش عايزاه، مش هيبات في البيت.. سامعني ولا لأ؟

- طب اهدي بس يا حبيبتي...

- يطلع يتربط مكانه جنب السور برا الفيلا لو عايز تحتفظ به.

هززت رأسي موافقًا، ربتُّ على كتفها حتى تشعر بالاطمئنان بينما كريم يتابع الحديث بعيون فضولية، ثم قال لها:

- بس انتِ كنتِ بتحبي الكلاب وانتِ صغيرة صح؟

هزت أروى راسها نافيةً وهي تعدل من وضع شعرها، فهمَّ يبادرها بسؤال آخر، لكنني رمقته ألا يتمادى في الحديث فعاد لصمته.

- انتِ ليه مخلتيش الست هي اللي تنضف الجنينة بدل ما توجعي قلبك؟

جففت دموعها ثم أكملت حديثها مفسرة:

- الجنينة دي بتاعتي وعزيزة على قلبي أوي، ماما الله يرحمها كانت بتراعيها بنفسها، وأنا للأسف أهملتها جدًا الفترة اللي فاتت، بس هرجع أهتم بيها من تاني وهترجع أحسن من الأول.

- بس الزرع دا مش لعبتنا وعايز جناينى شاطر.. إدي العيش لخبازه.

- لما أرجع من السفر نبقى نعملها سوا، وممكن برضو نبقى نسأل... يا كرييييم!

قطعت حديثها وزمجرت كالقطط وهي ترى كريم يعبث في لوحاتها التي تراصت أرضًا استعدادًا للتعليق. تراجع كريم خجلًا واستأذن ليخرج إلى الحديقة، فرمقته بنظرة ذات معنى التقطها هو في الحال وهز رأسه متفهمًا، بينما حملت هي إحدى اللوحات التي كان يعبث بها كريم بلهفة لتتأكد أن الصبي لم يفسدها بيديه. تأملتها وهي تطلع للوحاتها بإعجاب وقلت لها:

- جميلة اللوحة يا حبيبتي.. برافو عليكِ.

ثم أخذت نفس عميق وسألتها:

- قريت قبل كدا إن الرسم موهبة غالبًا بتتورث.. حد في عيلتكم كان بيرسم؟

اتسعت ابتسامتها وقالت وهي تصعد على مقعد لتعلق إحدى لوحاتها على الحائط:

- ماما كانت رسامة، وأنا ورثت منها الموهبة.

ثم نزلت من فوق الكرسي وتراجعت للخلف بضع خطوات بظهرها ولم ترفع عينها عن اللوحة. ثم رفعت إصبعها في الهواء وأغمضت عينها اليمنى وهي تشير يمينًا قائلة:

- لا، عايزة تيجي يمين شوية.

وهمت بالصعود مجددًا لتعدل من وضع اللوحة، بينما شرد ذهني في حديثها الذي يتضارب نصفه مع لقائها الصحفي ويتفق نصفه الآخر.

- انت مش في الموود النهاردا يا هون.. مالك كدا؟

- مفيش.. شوية مشاكل في الشغل مع حسام.

- ياااادي حسام دا! قلت لك اتكلم معاه وفهمه إنك مبتحبش أسلوبه دا!

انتهزت الفرصة ومجرى الحديث واعتدلت في وقفتي قائلًا:

- والله يا حبيبتي أنا عمال برقد له.. وقريب أوي هظبطه عند المدير.. التأخر في الانتقام يجعل الضربة أشد قسوة.

لم تبدُ عليها أي انفعالات معينة لسماعها للجملة، وانشغلت يدها بتعديل وضع اللوحة ثم التفتت إليَّ تسألني عن رأيي مجددًا، وعندما لم أُجِبها عادت تقول لي:

- سوري يا حبيبي نرجع لموضوعنا.. بصراحة أنا مبعرفش أتعامل مع الناس الشريرين اللي زيه، حسام دا شخص عبارة عن شر صافي. انت لازم توقفه عند حده!

فأعدت على مسمعها ما تعمدت قوله منذ ثانية واحدة :

- ما أنا بقولك التأخر في الانتقام يجعل الضربة أشد قسوة!

عقدت حاجبيها قائلة:

- يعني إيه؟!

صمتت وأنا أنظر إليها بنظرات فارغة. الأمر واضح وضوح الشمس، إنها لا تعرف شيئًا عن الرواية التي تدعي أنها ألَّفتها!

***

قدمت لي قدحًا من القهوة مبتسمة، ثم اقتربت مني لتجلس بجواري قائلة:

- مالك حبيبي؟

ارتجفت قليلًا رغمًا عني عندما احتكَّ ذراعها بذراعي، وأشحت بوجهي بعيدًا عنها:

- مفيش حاجة.. بالي مشغول بس شوية.

احتضن كفها الصغير كفي وقالت هامسة:

- والله كل حاجة هتبقى تمام.

هززت رأسي موافقًا وسحبت كفي ناهضًا:

- هطلع أشوف كريم بيعمل إيه.

فتحت باب المنزل لأخرج لكريم، فقالت لتذكرني:

- متنساش لو سمحت.. الكلب هيفضل برا الفيلا، لو عايزه يبات هنا النهاردا.

رمقتها بنظرة صامتة وكدت أخرج، ثم تذكرت فعدت إليها سائلًا:

- صحيح العمال دول كانوا بيعملوا إيه؟

- كانوا بيفضوا المخزن اللي تحت من الكراكيب الكتير.

- بس دول نقاشين.. هدومهم كلها بوية!

فقالت ضاحكة:

- ما هما أصلًا جايين يدهنوا المخزن، وخليتهم يفضوا المكان بالمرة.. المكان كبير علينا أنا وكريم.. كفاية علينا الفيلا نفسها.

هززت رأسي وخرجت، فوجدت كريم يقف في الحديقة حاملًا ألبوم الصور بين طيات ملابسه، لكنه حائرًا ممتقع الوجه.

***

في الصباح الباكر، وقفت مع أروى أمام محطة القطار، استندنا على مقدمة السيارة ننتظر موعد قطارها. مدت كفها الرقيق تداعب كفي وتعانقه، اقشعر جلدي لدى ملامسته لأناملها الباردة، لم أعد أحب كثيرًا لمساتها. وسحبت كفي من بين كفها. لعلها شعرت بشرودي فالتفتت لتواجهني ونظرت في عيني قائلة بعذوبة:

- عارفة إنك متضايق من سفري المفاجئ، أنا حقيقي آسفة، بس دي آخر مرة، بعد كدا هنبقى سوا في كلة خطوة. وبعدين أنا لازم أزور خالتو يا حبيبي.

انعقد لساني ولم أجبها، لا تدري هي أن الأمر أعقد بمراحل مما تتحدث عنه، وأنني لا أبالغ إن قلت لم أعد أشعر بذرة ارتياح لقربها مني. إن كل هذه المغالطات والأكاذيب مرعبة للغاية.

قاطعت حبل أفكاري قائلة بحزن:

- يعني معقول هسافر وانت زعلان مني؟

- مش زعلان يا أروى، أنا ممكن بس متوتر عشان ملحقناش نخلص ومزنوقين.

- معلش المفتاح معاك اهو، البت بيتك انت وكريم ولميس، الدهانات تقريبا هتخلص على بكرة ويبقي فاضل التنضيف والفرش، وأنا أوعدك أرجع قبل الـ ٥ أيام كمان وأستلم منك الشيفت بقى.

ثم عقدت حاجبيها متظاهرة بالجدية وأشارت بإصبعها محذرة:

- الكلب ميدخلش البيت وأنا مش موجودة!

ابتسمت لها فأشرق وجهها، وجذبت أناملي وقبَّلتها.

- يلا عشان متتأخريش على القطر.. مش معقول صاحيين بدري وفي الآخر نفوته!

***

ودعت أروى وخرجت من محطة رمسيس شارد الذهن، نظرت لساعتي، إنها الثامنة صباحًا، ما زال الوقت مبكرًا. وجدت نفسي أتجه إلى المعادي.. شوارعها الهادئة المتشابكة كأفرع أشجار الغابات الاستوائية، تبتلعني وأنا أنهالها مسرعًا حتى أصل إلى وجهتي. بيت أروى..

أردت أن أتفقد برونو وأطمئن أنه أكل طعامه وصار أهدأ بعد نوبة الغضب التي انتابته عند رؤيته لها وهي تغادر المنزل صباحًا. أوقفت السيارة أمام الفيلا، فوجدته نائمًا في ملل بمكانه بجوار سور الفيلا الأمامي، لكنه ما لبث أن استيقظ فرحًا وأخذ يقفز من حولي في حدود المساحة التي تسمح بها السلسلة من حرية، فتحت باب الحديقة وحررته من قيده، فانطلق بسرعة الصاروخ إلى داخل الحديقة وكأنه يعرف وجهته جيدًا، واتجه إلى بقعة بعينها وبدأ ينبش الأرض. لكنني زجرته بعصبية فابتعد.

قضينا بعض الوقت في اللعب ثم تركته وعدت للسيارة وفتحت شنطة السيارة، تأملت ألبوم الصور ذهبي اللون، ذلك الذي لم يستطع كريم إعادته بالأمس. عدت بذاكرتي إلى البارحة عندما وقف أمامي ممتقع الوجه.

- مالك يا كريم؟ ما رجعتش الألبوم ليه؟

لم يجبني. وجهه الشاحب نقل قلقه إليَّ، فعدت أسأله برفق وأنا أنظر من النافذة لأتأكد أن أروى لا تراقبنا من خلفها:

- فيه إيه يا كريم؟!

أجابني صوته المرتجف:

- ملقتش الباب.

- يعني إيه؟!

- ملقتش الباب.. الباب بقى مكانه حيطة..

قطع حبل أفكاري نباح الكلبُ، فعدت إلى أرض الواقع، أخذت الألبوم وعدت إلى داخل الحديقة مسرعًا، بحثت عن برونو لكنني لم أجده، فاتبعت مصدر الصوت، النباح قادم من اتجاه باب القبو. وقف الكلب ينبح على باب القبو وهو يدور حول نفسه بعصبية، ثم ينبش بأظافره الحادة. وضعت السلسلة حول عنقه وجررته جرًا بعيدًا عن الباب وأنا أحاول تهدئته.

- اهدى يا برونو اهدى.. فيه إيه لكل دا؟!

قدته بعيدًا عن القبو وربطت السلسلة بالشجرة حتى لا يعود إلى باب القبو ويبدأ وصلة نباحه التي سوف تتسبب بإيقاظ الجيران. ودلفت للبيت حتى آخذ المفاتيح التي تركتها لي أروى على المقعد، جميعهم مكتوب عليهم بخط أنيق صغير (البوابة.. الباب.. السطح.. الخزنة). لا مفتاح للقبو إذن! هممم..

وقفت أتأمل الحائط الذي قام كريم بطلائه بحرفية شديدة، واللوحات التي علقتها أروى مزينة بإمضائها.

"أنا مورثتش الموهبة دي من ماما للأسف". هكذا قالت في حفل التوقيع. كيف رسمت كل هذه اللوحات إذن؟ هل أخذت دورات مثلًا في مجال الرسم الفترة الماضية فطورت من موهبتها؟ لكن لا.. لقد رأيتها ترسم في الصور التي كانت تبدو فيها في المشفى، كما أنها أكدت لي عكس كلامها أمس!

لماذا كانت في المشفى إذن؟! هل كانت تعاني من مرضٍ ما وهي صغيرة؟ على حد علمي أن وجود بعض سمات التوحد لدى أحدهم لا يدخله المشفى، خصوصًا أنني لا أرى أن السمات ظاهرة إلى هذا الحد!

كنت غارقًا في هذه الأفكار حين وجدت قدمي تقودني إلى القبو، تحسست قفل الباب الموصد بصلابة. من قال أنني قد أقف أمام هذا الباب مكتوف الأيدي؟

عدت في المساء حاملًا مطرقة ومفكًا، وبعض الأدوات من مخزن أبي رحمه الله، وأخذت أعبث في قفل الباب ببعض الأسلاك حتى استسلم بدون خسائر. دلفت إلى المكان بحذر وتحسست الحائط المجاور للباب بحثًا عن زر الإضاءة، لم تمضِ ثوانٍ حتى وجدته، فأُضيئت الغرفة بلونٍ أصفر شاحب.

منذ اللحظة الأولى، انقبض قلبي وشعرت بشعور غاية في السوء تجاه المكان الخانق، السقف منخفض للغاية، رأسي يكاد يلمسه وأنا لست بفارع الطول، ورغم اتساع المكان، لكني شعرت بصدري يضيق، لا أدري ربما أنا مصاب بنوع من أنواع رهاب الأماكن المغلقة (الكلستروفوبيا)، كما أن هناك رائحة سيئة تنبعث من كل مكان، رائحة هي مزيج من العطن والدهانات الحديثة والطعام المتحلل، دارت عيني بحثًا عن مصدر الرائحة، فلم أجد مصدرًا محددًا للرائحة، إنها تنبعث في الأجواء، من اللا مكان.

تأملت الحوائط التي اكتست جميعها بلونٍ رمادي كئيب، أدوات الدهان تراصت أرضًا في ركن المكان، تحسست الجدران، ملمسهم ناعم للغاية، مجرد جدران حديثة الطلاء.. ولا باب هناك! كيف؟! لقد ذكر كريم أن باب الغرفة يقع أسفل الدرج، هذا هو الحائط المقصود ولا باب هناك، مجرد حائط بريء!

جلست أرضًا أتأمل الجدران الأربع متسائلًا بحيرة: أين هذا الباب اللعين؟ هل كان كريم يهذي؟

-برونو بدأ ينبح-

ربما لم يكن هناك باب من الأساس! ربما تخيل الصغير كل هذا.. أو لعله وجد الألبوم وسط الفوضى في أي مكان واختلق هذه القصة!

-برونو ينبح بشدة ويشوش أفكاري-

إن كريم خياله واسع والأفلام البوليسية ساعدت في اتساع خياله أكثر.

-ليت هذا الأحمق يصمت، صوته بعيد لكن صداه يصل إليَّ في هذا القبر القميء-

لكن كريم بدا لي صادقًا للغاية بالأمس، الفتى كان خائفًا بحق، الأمر شديد الغموض!

خُيل إليَّ أن صوت برونو يقترب، ظننت في البداية أنني أتخيل، لكنني وجدته يقف عند باب القبو، ثم اقترب بهدوء وتأملني وهو يزوم مزمجرًا.

بسطت ذراعي له مناديًا:

- تعالى يا برونو..

فاقترب بتردد حتى استقر بحِضني ومسح رأسه في وجهي، تحسست رقبته، السلسلة لا تزال هناك حول رقبته. كيف جاء إلى هنا؟

- أنت قطعت السلسة؟

نظر إليَّ ولعق وجهي بحب.

- انت قطعت السلسلة ولا مين اللي فكك؟

خرجت إلى الحديقة عائدًا للمكان الذي تركته به وأنا أحمل المطرقة كأداة للدفاع عن النفس ضد ذلك الـ.. الـ.. اللا أحد في الواقع! لا أحد هناك! إذن من فك وثاق برونو؟!

اقتربت من الشجرة، فوجدت السلسلة مقطوعة بالفعل، لقد قطعها بعصبيته الشديدة. نظرت حولي بحذر، المكان هادئ بصورة مرعبة، نسيت أن أُنير أضواء الحديقة، فوقفت في الظلام الدامس أتأمل اللا شيء، ثمة ضوء خافت قادم من مصابيح الشارع، لكن الأشجار المتشابكة في الحديقة منعته من الوصول بوضوح، فتسلل على استحياء، مشيت عدة خطوات باتجاه القبو وأنا أتلفت حولي حتى عدت لبرونو.

وجدته ينبش الأرض بجوار الحائط الأوسط وهو ينظر للجدار وينبح نباحًا متقطعًا، حاولت إبعاده، لكن جسده تصلب وواصل محاولاته البائسة في الحفر. هناك شيء خلف هذا الجدار!

طرقت الجدار بقبضتي في أكثر من موضع. نعم.. لا شك.. اختلاف الأصوات واضح تمامًا بين تلك البقاع جميعًا، وهذه البقعة المستطيلة تحديدًا، فهذه حوائط، أما هذا فليس بحائط. ربما خدعني الملمس الناعم للدهانات الحديثة التي تغطي الحائط لكن الأمر واضح وضوح الشمس الآن. لقد حاولت أروى جاهدة طمس ملامحه وإخفاءه خلف الدهانات، لكن الصوت فضح الخدعة غير المتقنة!

همست وأنا أتحسس الباب الخفي برهبة:

- الباب هنا يا برونو.. مش كدا؟

نبح الكلب أي نعم. ماذا يوجد خلف هذا الباب؟ ما هو هذا الشيء الذي أرادت هي أن يدفن للأبد؟

حملت المطرقة، بعدت بين ساقي لأصنع لنفسي نقطة ارتكاز، وهويت بالمطرقة على الباب الذي يتظاهر بكونه حائط.

***

توالت الضربات على الباب المستتر خلف الدهان الرمادي الكئيب، استغرق الأمر العديد من الضربات، فالباب اتضح أنه أقوى مما يبدو، لكنني كنت أستمد قوة غاشمة من فضولي وغضبي، فضولي لأعرف لماذا تكذب هي، وغضبي لأنها تكذب أصلًا.

أخيرًا، صنعت فجوة لا بأس بها، لكنها لا زالت لا تسمح بدخولي، بعض ضربات أخرى ويتهاوى هذا الباب. شعرت بآلام رهيبة في ساعدي، فأنا لم أعتد هذا المجهود من قبل، لكنني استمريت في تسديد الضربات إلى الباب العنيد. استغرق الأمر نصف ساعة أخرى قبل أن يتهاوى تمامًا ليكشف لي عن غرفة صغيرة للغاية لا تتعدي المترين مكعب. الصناديق التي تحدث عنها كريم تتراص هناك بالفعل، الفتى لم يكن واهمًا.

أضأت نور الكشاف الذي أحضرته معي حتى أبحث عن زر الإنارة حتى وجدته، لكن لا نور ها هنا، رفعت ضوء الكشاف لأعلى، المصباح مكسور، فيما يبدو أنه كُسر عمدًا، لأنني وجدت تحته بقايا الزجاج الأبيض المهشَّم.

حسنًا، سوف أعتمد على ضوء الكشاف فقط، يوجد ثلاث صناديق من الكرتون هناك. الأول به صور عشوائية وألبومات. والصندوق الثاني به أوراق كثيرة تبدو لي خطابات من طريقة طيها، وهناك أظرف مغلقة بها خطابات لم تُقرأ قط، جميعهم مرسل لأروى، والمرسل (مستشفى العباسية للصحة

النفسية)! وأما الخطابات المفتوحة فجميعها مرسلة إلى أروى أيضًا، لكن المرسل مختلف (خالتكِ الحبيبة)، كما هو مدون في نهاية الخطابات. أما الصندوق الثالث فقد امتلأ بتقارير طبية وأشعات تبدو لي قديمة من الحافظات المهترئة المغطاة بطبقة من الغبار، كما يوجد على سطحهم دفتر يوميات مثلما قال لي كريم. تناولت الدفتر وفتحته، وجدت اسمًا وتاريخًا يتوسطان الغلاف الداخلي، قرأتهم بصعوبة على ضوء الكشاف (نادية سالم - سنة ٢٠٠٨).

تصفحت الصفحات بشكل عشوائي، الصفحات صفراء نوعًا ما، لكن الخط جميل منمق للغاية، أعتقد أنه نفس الخط الذي كان يؤرخ صور أروى، بالتأكيد خط أمها. أحيانًا يبدو مرتبكًا ومهزوزًا، وأحيانًا ثابت منظم للغاية. بعض الصفحات تلوثت ببقع مشروبٍ ما، وبعضها ساح به الحبر بسبب أثر دموع واضح. أردت أن أتصفحه، لكنني أدركت استحالة الأمر، خصوصًا مع عتمة المكان، فأخذته، وأخذت كذلك ألبوم صور آخر وبعض الخطابات المفتوحة، والتي لم تُمس بعد، وإحدى الأشعات والتقارير، وصعدت عائدًا للمنزل. إن ليلتي طويلة مليئة بالتفاصيل.

***

كوب من القهوة، وإضاءة جيدة، هما كل ما أحتاج إليه الآن لأطالع غنيمتي. جلست على الكنبة المريحة وجلس برونو أرضًا بجواري في هدوء وقد تلاشي توتره حمدًا لله. رشفت رشفة سريعة من القهوة الساخنة فتغلغلت في شراييني وأيقظت خلايا مخي النائمة، وضعت الكوب أرضًا، فلا توجد منضدة بجواري، حرصت على أن أبعدها عن الخطابات وألبوم الصور الذهبي حتى لا تسقط ويحدث ما لا يحمد عقباه.

بدأت بألبوم الصور الجديد، المزيد من الصور لأروى وهي تبدو لي مراهقة في السادسة عشر مثلًا وتحتضن جروًا ما، أكاد أُجزم أنه برونو وهو صغير، وشعرها البني الناعم يتطاير في الهواء، فستانها وردي اللون القصير يجعلها كائن ملائكي لا يقاوم. وصورة أخرى بنفس الفستان الوردي وهي تحمم الكلب الذي يبدو ثائرًا للغاية وهو يكشر عن أنيابه نابحًا على شيءٍ خارج كدر الصورة، بينما أروى تضحك ساخرة وهي تنظر لنفس الاتجاه الذي ينظر له الكلب. ثم صورة أخرى لأروى وهي ترتدي فستانًا آخر أبيض اللون، تختبئ نصف ملامحها التي بدت منزعجة للغاية وسط شعرها المجعد، بينما تختبئ هي شخصيًا خلف شجرة مذعورة، ويظهر جزء من الكلب في ركن الصورة نابحًا مزمجرًا عليها، بينما تمنعه السلسلة التي يمسكها أحدهم، لا يظهر من هذا في كدر الصورة، من أن يقفز عليها ليلتهمها، وأخيرًا صورة رابعة لها وهي بنفس

الفستان الأول، وردي اللون وهي تمسك بسلسلة الكلب بكلتا يديها لتمنعه من أن يفلت وهي تضحك بشدة.

شعرت بالقشعريرة تسري في أسفل عنقي وأنا أُقرب آخر صورتين من بعض حتى تكتمل صورة المشهد الذي يبدو أن أحدهم صوّره لحظة بلحظة، كأنها كادرات سينمائية، الصورتان يكملان بعضهما، الأشجار في الخلفية وحوائط المنزل يكملان بعضهم ويظهران المشهد كاملًا. فتاة خائفة من كلب شرس تختبئ خلف شجرة، بينما صاحبة الكلب الفتاة الأخرى تمسك الكلب بسلسلة لتحد من غضبه وتمنعه من الهجوم على الفتاة التي تختبئ.. وكلا الفتاتان.. أروى!

***

نادية سالم.

يناير ٢٠٠٩..

أقف أمام المرآة.. أنظر إلى شعري الأبيض الذي غطى مقدمة رأسي وزاد بغزارة، أتأمل التجاعيد أسفل عيني وملامحي التي تجعلني أبدو في السادسة والخمسين وليس في السادسة والأربعين. لا رغبة لي في الخروج من المنزل اليوم، على الرغم من أنه موعد زيارة كارما الأسبوعي. نظرت للنتيجة المعلقة:

١-١-٢٠٠٩

مر عام على بداية كل هذا، عام كامل من الإنكار والهروب من مواجهة البشر، لم أكن أعلم أن مثل هذه المشاكل قد تحدث في الحقيقة، أو بمعنى آخر، لم أتخيل أنها قد تحدث لي.. فهذه الأشياء الشنيعة كنت أقرأ عنها في صفحة الحوادث، ثم خلد إلى فراشي ليلًا وأرتجف خوفًا، ثم أتذكر أن هذا يحدث للآخرين فقط.. لا ولن يحدث لي.

كنت أعتقد أن أقصى المشاكل التي قد أواجهها في التربية هي محاولة تهذيب أخلاق ابنتي عندما أكتشف أنها تدخن سيجارة خلسة، أو أنها تصادق أحد غلمان هذه الأيام الذين يطيلون شعورهم كالفتيات.. لا أُصدق ما حدث!

نصحتني طبيبتي النفسية أن أُدوّن ما يقلقني ويغضبني، إن تدوين المذكرات يساعد في تخفيف حدة الاكتئاب، فوجدتني أريد أن أدون ما حدث العام

الماضي، رغم أن الطبيبة طلبت مني أن أركز تفكيري على حياتي الحالية وأبتعد عن العام الماضي. لكن هيهات.. أنا لم أتخطَ الأزمة بعد.

أجلس في الحديقة وأغمض عيني وأعصر ذاكرتي جاهدة لأتذكر كيف بدأ الأمر..

ذلك اليوم في شهر يناير، الأجواء الضبابية والأمطار في الخارج، بينما دفء المنزل يغريني بالنعاس، لكنني لم أكن نائمة، بل وقفت أعد طعام الغداء سريعًا حين...

– مامي، مامي.. كارما بتضرب بنت برا في الجاردن وأنا مش عارفة أعمل إيه!

تركت ما كنت أفعله في المطبخ وهرولت بثياب النوم لا شعوريًا لأوقف ابنتي التي تتشاجر، وأمنع ما تفعله أيًا كان. وصلت للشارع الخلفي، فتوقفت عن الركض لاهثة أمام المشهد. ابنتي ذات الرابعة عشر اعتلت جسد فتاة أخرى تبدو أضخم منها وربما أكبر سنًا كذلك وهي تكيل لها اللكمات بكل عنف، بينما هناك فتاتان تحاولان أن يفضضن هذا الاشتباك العنيف.

تسمرت أمام المشهد وقد شلت المفاجأة عقلي، ولكنني سرعان ما تحركت تجاههم وجذبتها من ذراعها صارخة فيها، لكن هيهات، لقد تلاحمت الأجساد كأنما تم لصقهما بغراء أبيض متين!

أما أروى فكانت سريعة البديهة كعادتها، فجلبت إناءً ممتلئًا بالماء البارد من المطبخ كنت أستعد أنا لأضع به الخضار المسلوق، وسكبته على الفتاتين

الملتحمتين. انتفضت الفتاتان عندما سقطت المياه الباردة على جسدهما في هذا الطقس القارص، ونهضت كارما أخيرًا عن الفتاة وقد بدأت تعود لرشدها، ثم صرخت وهي تشير للفتاة بإصبع غاضب مبررة لي ما فعلته:

- كانت بتضرب أروى!

صاحت الفتاة الأخرى التي احمر وجهها بفعل اللكمات:

- كذاااابة، أنا كنت بتكلم مع أروى بس، مكنتش بضربها ولا حاجة.

- انتِ كنتِ بتشديها من شعرها.. أنا شفتك!

نظرت الفتاة لي قائلة:

- أروى صاحبتي وأنا كنت بهزر معاها، معرفش دي طلعت من فين وهجمت عليا زي الكلب المسعور، يا ريت تبقوا تربطوها مع كلبكم بدل ما هي بتعض في الناس كدا!

صرخت الأم:

- بس! عيب كداا، انتِ صاحبة أروى منين انتِ؟ أنا أول مرة أشوفك!

تدخلت كارما صائحة:

- يا ماما مش صاحبتها، بقولك كانت بتشدها من شعرها و...

- لا صاحبتي..

قاطعتهم أروى بهذا الرد المقتضب، نظرت لها أمها طالبة التفسير فأكملت:

- إنجي معانا في المدرسة بس هي أكبر مننا بدفعتين، وأنا استلفت منها شريط انريكي ايجلاسيس الجديد من أسبوعين والشريط ضاع مني، فهي زعلانة وكانت آه بتزعق لي.. لكن مشددتش شعري ولا حاجة.. كارما بيتهأ لها.

رمقتها كارما بعيون متسعة، فهي تعلم جيدًا متي تكذب توأمها.

***

سقط الدفتر من يدي..

توأمها!!

أروى لها أخت توأم ولم تخبرني عنها شيئًا!

تأملت الصور بعدم تصديق، ماذا تخبئين أيضًا عني؟

عدت للمذكرات مرة أخرى..

***

لم أكن أعلم أنه في نفس الليلة، عندما انتصف الليل، وعندما كنت أغط أنا في سبات عميق، جلست كارما بجوار أروى في الحديقة. استلقت أروى على ظهرها وهي تدخن سيجارة سرقتها من علبتي سرًا. الحشائش التي تنام عليها تدغدغ رقبتها وهي ترمق النجوم بتمعن. كارما تراقبها بصمت كعادتها، لكن

أروى تجاهلت وجودها ونظراتها المشتعلة التي تفوق تلك السيجارة التي تدخنها اشتعالًا. كانت تعلم جيدًا بتضارب مشاعر كارما تجاهها بشدة، فبالرغم من دفاعها الدائم عنها كالأسد ضد أي شخص يحاول أن يؤذيها، لكنها كانت تعلم أنها تحقد عليها بشدة، إنها السارقة التي سرقت الحظ الجيد والذكاء الوافر والوجه الحسن، فعلى الرغم من كونهما توأم شبه متطابق، فقد كانت أروى تزداد ملاحة عن كارما بشكل ملحوظ، ربما في رسمة الوجه المستدير أو في القوام الممشوق الذي يظهر أنوثة واضحة رغم كونها لم تتجاوز الرابعة عشر، ساعدها القميص المدرسي في إبراز مفاتنها، ذلك القميص الذي قامت بتضييقه عند الترزي لأقصى حد قد يحتمله القماش بدون علمي بالتأكيد، ربما تظاهرت بالضيق في البداية لكنني وجدتها تبدو أجمل هكذا فصمت. أما كارما فكانت تُصر على ارتداء زي المدرسة الرسمي الواسع وتنسدل ضفيرتها على ظهرها فتضيف عليها مظهرًا طفوليًا، طفلة تختبئ وراء منظار طبي عملاق. اختلفوا كذلك في لون العيون وطبيعة الشعر.

أما عن اختلاف طباعهم، فحدِّث ولا حرج. عندما تتحدث أروى المتكلمة اللبقة، تبتسم لها الدنيا بأجمعها، لطالما كانت هي فخري في كل التجمعات العائلية، أدفعها دفعًا للظهور والحديث، أردت أن يعجب الجميع بحضورها الأخاذ ويثنوا على حسن تربيتي لها رغم كوني أربي الفتاتين بمفردي، بعدما

تركنا أبوهم الحقير، لكنني لم أكن محظوظة إلى هذا الحد، فكان تألق أروى يتزامن عكسيًا مع انطفاء نجم كارما، التي كنت أتعجب من انطوائها منذ نعومة أظافرها وهي تتوارى خلفي خجلًا إذا وجَّه أحدهم حديثًا إليها، حاولت أن اشجعها كثيرًا لكنني أعترف أني لم أكن أتمتع بطول البال، فسرعان ما استسلمت لفكرة أن كارما طفلة انطوائية وغير طبيعية، فصرت أتجاهلها عمدًا. إذا تحدث إليها أحدهم لم أكن أشجعها للحديث، بل أنظر لأروى لتتولى هي الإجابة بدلًا من أختها.

لطالما تعجب الجميع من الاختلاف بينهما، حتى بمدرستهم، لم يحدث أن سبق أحدهم أروى في الدراسة أو طلاقة اللسان قط، لطالما تصدرت كل شيء، كما نبغت في الكتابة أيضًا، فصارت كاتبة المدرسة الأولى التي لا تخلو إذاعة المدرسة من مقالاتها.

أما كارما، فقد تقوقعت في ركن الفصل خلف كراسة رسمها، لم تفلح أي من محاولات المعلمين أو زملاء الفصل في لفت انتباها لتترك تلك الكراسة وتنتبه لما يقولونه، تسمع سخريات الفتيات من عويناتها، وضفائرها الطفولية وتصمت، تسمع حديث المعلمين عن تدني درجاتها ولا تجادل، وتسمع توبيخي لها ومقارنتها بأختها ولا تدافع عن نفسها، فقط تزيد من سرعة تلوينها بعصبية. لا أحد يعلم ماذا ترسم، دائمًا تخفي ما ترسمه وتصاب بعصبية

شديدة إذا ما حاول أحدهم جذب الكراسة عنوة. لم تكن تطيق أن يلمسها أحدهم، قد يصل الأمر لضرب مبرح لمن يصطدم بها دون قصد.

نصحني المعلمون أن أعرضها على طبيب نفسي لأقلل من عدوانيتها، ونصحني الأصدقاء أن أستفيد من قوتها الجسدية وأستثمرها في الرياضة وألعاب القوة، لكنني لم أكترث لهم جميعًا. ربما لم أكن على استعداد لتصديق أن إحدى فتياتي غير سوية نفسيًا، فتجاهلت الأمر برمته. وقد كانت كارما صندوق باندورا ممتلئ بالمشاكل والآلام النفسية.

في تلك الليلة، سألت كارما أروى التي ما زالت تتأمل النجوم:

- ليه كذبتِ وقلتِ ماكانتش بتضربك!

قالت أروى ضاحكة:

- بيني وبينك ما هي عندها حق تتغاط برضو.

- ضيعت منها شريط انريكي ايجلسيس بجد؟

ابتسمت بغموض وقالت لها:

- تؤ تؤ.. ضيعت منها انريكي ايجلسيس نفسه.

هزت كارما رأسها بعدم فهم ونهضت ومدت لها أروى ذراعها لتجذبها وتساعدها على النهوض، لم تنسَ أن تتهكم على قوتها الجسدية قبل أن تعودا سويًا لغرفتهما.

لم نكن نعلم ليلتها أن إنجي يجافي عينها النوم وتحترق غضبًا. لا بد من حل.. لا بد من حل.

في صباح اليوم التالي، جلست إنجي في فناء المدرسة تراقب سليم الجالس في الجهة الأخرى، وكما خمنتم، إنه الفتى الذي تشاجرت من أجله الفتاتان بالأمس. تعرفون هذا الطراز من الصبية الأوغاد، يصففون شعرهم بعناية ولا يكفون عن حلاقة ذقنهم يوميًا حتى يزيدون من كثافتها سريعًا، فتعطيهم المظهر الرجولي الذي يطمعون به. بالطبع لا بد له من هواية يجيدها حتى يستطيع أن يجمع الفتيات من حوله كالفراشات في برطمان زجاجي، وقد كان هذا السليم يعزف الجيتار مثل انريكي اجلاسيس المغني الإسباني معشوق الفتيات في هذا العصر. لعلها عضت شفتيها ندمًا وهي تراه يجلس مع أروى ويميل على أذنها ليلقي بعض النكات الصبيانية، فتنفجر هي ضحكًا بميوعة، ومن حين لآخر تلتفت أروى لترمي إنجي بسهام الشماتة القاتلة.

لعل سالي ونرمين صديقات إنجي جلسن بجوارها ونظرن إلى ما كانت تنظر هي إليه، وقالت الأولى:

- البت دي لازم تتربي يا إنجي.

صمتت إنجي ولم تجبها، بينما فحت الفتاة الأخرى في أذنها لائمة:

- قعدت أقولك إيه البت المفعوصة دي اللي عايزة تدخليها شلتنا.. وانتِ مسمعتيش كلامي.

والتقطت الأخرى الخيط منها مسترسلة:

- اهي أخدت منك سليم وأكلت الجو.

لعل إنجي نهضت ثائرة وألقت الكوب الذي كانت تشرب منه أرضًا بعدما سحقته بين أصابعها بعصبية، وابتعدت وقد صممت على الانتقام من أروى.

كيف لي أن أعلم أن صغيرتي كانت في خطر وقتها، وأن الأمر أعمق من مشاجرة فتيات عبثية! لقت قررت إنجي أن تشن الحرب على أروى، وقد عزمت في قرارة نفسها أن تلقنها درسًا لن تنساه. لا أعلم ما دار وقتها، لكنها بالتأكيد اجتمعت بأفراد شلتها التي تقتصر على سالي ونرمين، ضلعي مثلث الفساد. لا بد وأن هذا الاجتماع كان في بيت سالي، فقد علمت فيما بعد أن أمها تعمل طبيبة وتعود ليلًا من المشفى، وتترك الفتاة وحيدة طوال اليوم، وأن منزلها كان هو وقر تجمع الشلة.

موسيقي صاخبة، دخان السجائر، فمثل هذه التجمعات لا تخلو من السجائر للأسف. سالي مسترخية وقد وضعت رأسها على فخذ نرمين التي انشغلت بوضع طلاء الأظافر الأحمر القاني وهي تضحك بميوعة. دلفت إنجي إلى الغرفة بعصبية وأغلقت الكاسيت، فاعتدلت سالي في جلستها بينما كفت نيرمين عما كانت تفعله، ونظروا إلى إنجي التي أخذت تزرع الغرفة ذهابًا وإيابًا بعصبية كالأسد الحبيس في القفص.

- فيه إيه يا بنتي خيلتينا؟

تطلعت لهم قائلة:

- انتم لازم تساعدوني.

- في ضهرك طبعًا.. بس عايزانا نعمل إيه؟

- هنأدبها طبعًا..

صمتت الفتاتان فأكملت هي حديثها:

- يوم التلات هي بيكون عندها موسيقى الحصة الرابعة، بيروحوا أوضة الموسيقى، وهي طبعًا بتقول عايزة تروح الحمام وتروح تقض تلات أربع الحصة في الحمام.

- وبعدين؟

- سالي هتراقب الجو بعيد شوية عن الحمام، لو شافت أي حد جاي على الحمام تقوله الحمام غرقان مياه، أنا واقفة مستنية لما يسلكوه. وأنا ونرمين هنبقى جوا مستنيينها، وأول ما تدخل...

و أخرجت من حقيبتها مقصًا حادًا للغاية، فتحت حديه وأغلقتهما في الهواء مرتين متتالتين. نظرت الفتاتان لبعضهما وساد الصمت لبرهة، ثم نطقت سالي بصوت مرتجف:

- انتِ ناوية على إيه يا إنجى؟

- هقص لها شعرها اللي فرحانة بيه.. هذلها.

- لا يا إنجي.. مش للدرجة دي!

رمقت نرمين بنظرة نارية قائلة:

- اخرسي انتِ. يعني انتم تفضلوا تسخنوني عليها ولما يجي وقت الجد تخلعوا!

فصمتت الفتاة أمام عيون إنجي. ثم عادت لتعترض وقد تذكرت شيئًا:

- وليه بقى أنا اللي أبقي معاكِ وسالي هي اللي تبقى برا؟!

- عشان سالي كتيانة ومش هتعرف تكتفها.

- إحنا هنكتفها؟!

- أمال فاكرة هتسيبنا نقص لها شعرها بسهولة كدا؟

- انتِ عارفة لما يعرفوا هيعملوا فينا إيه في المدرسة؟ دي فيها مش أقل من رفد أسبوع!

- وإيه يعني؟ أسبوع وهنرجع تاني. وأصلًا هي هتخاف تتكلم، ولو اتكلمت هقول إني لقيتها لابسة السلسلة الدهب بتاعتي اللي سرقتها من بيتي لما كانت بتيجي تقعد معايا، ففقدت أعصابي وقصيت لها شعري.

- بس انتِ إديتيها السلسلة دي هدية في عيد ميلادها!

- لكن محدش يعرف.

نهضت سالي قائلة:

- معلش يا إنجي أنا مش معاكم المرة دي، الموضوع كدا هيوسع أوي مننا!

رمقتها إنجي بنظرة خاوية ونهضت قائلة:

- لا هتبقي معانا.. ومش بمزاجك.

***

بعد يومين من هذه الجلسة السرية، كنت عائدة من عملي حين وجدت أروى تقف أمام باب حديقتنا تتحدث همسًا مع فتاة ممتلئة قليلًا، كانت مألوفة المظهر لي نوعًا ما لكنني لم أتذكر أين رأيتها. مررت بجوارهما فصمتت الفتاة

وابتسمت لي أروى، ألقيت عليها تحية عابرة ودلفت لداخل المنزل. وجدت كارما تتلصص عليهم من النافذة.

- بتعملي إيه يا كارما؟

أجفلت وتراجعت بعيدًا عن النافذة خطوتين وقالت بتوتر:

- ولا حاجة.

وانشغلت بمساعدتي في إفراغ حقائب البقالة ورص الجبن في الثلاجة، عادت أروى من الخارج وهمست في أذن كارما بشيء ما، فتركت كارما ما كانت تفعله وتابعتها باتجاه غرفتها.

- مش هتتغدوا يا بنات؟

- عندنا امتحان مهم بكرة يا ماما لازم نذاكر. اعملي لنا ساندويتشات وخلاص.

و أحكمتا باب غرفتها من خلفها. وفيما بعد.. عرفت ما دار خلف الباب المغلق ليلتها.

جلست كارما على طرف الفراش المقابل لأروي وسألتها بقلق:

- البت دي كانت عايزة منك إيه؟ وليه مقولتيش لماما؟

- نرمين جاية في خير.. جاية تحذرني.

- من إيه؟!

حكت لها أروى ما تخطط له إنجي، وكيف أن كلتا الفتاتان معترضتان على هذا المخطط، لكن إنجي تهددهما بفضحهما عند أهليهما أنهما تدخنان سجائر الحشيش في بيت سالي كل يوم خميس، فقررت نرمين أنها على الأقل سوف تحذر أروى وتغامر بإفشاء خطتها.

- لازم نقول لماما.

- لو قولنا لماما الموقف المرة دي ممكن يعدي آه.. لكن إنجى هتحاول تاني والمرة الجاية مش هنعرف لأنها هتعرف إن حد من البنات خانها وفتن لي على خطتها.

ونهضت مفكرة وهي تلعب في شعرها الحريري قائلة:

- إحنا عايزنها تستفرد بيا فعلًا وتحاول تقص شعري.. وبعدين تتمسك متلبسه من المديرة من غير ما تعرف إني كنت عارفة، كأن الموضوع صدفة، كأن ميس هدى المديرة كانت بتعمل تفتيش مفاجئ على الحمام مثلًا.

- ودي هنعملها ازاي؟

زفرت أروى بقوة وتربعت على فراشها، فهي ربما كانت تتظاهر بالثبات لأن هذا هو ما تعودت عليه، لكنها كانت خائفة بالتأكيد. إن روح النمر التي تسيطر عليها ما كانت ستسمح لها بالاستسلام أو طلب المساعدة من الكبار

كأي طفلة في سنها. نظرن إلى كارما التي ترمقها بثبات وخطرت لها فكرة جهنمية.

في اليوم التالي.. وفي حصة الموسيقى، استأذنت أروى لتذهب لدورة المياه، لم تعارض المعلمة فهي تعلم أن وجود أروى مثل عدمه في حصة الموسيقى، لم تمر دقيقة حتى بدت كارما متوترة للغاية ورفعت يدها لتستأذن من أجل الذهاب لدورة المياه هي الأخرى. نظرت لها المعلمة وقالت بسخرية:

- انتم واكلين إيه انتم الاتنين؟ خلاص حبكت يعني؟ ماشي يا ستيي اتفضلي.

خرجت كارما مسرعة لتجد أروى تنتظرها بالخارج قريبًا من الحمام فاتجهت إليها مسرعة، واقتربت من أذنها هامسة:

- ٥ دقايق وهكون جبت المديرة معايا.

فهمست أروى بتوتر شديد وهي تصافحها:

- متتأخريش عليا، أنا هعطلهم على قد ما أقدر عشان تيجوا على الخناقة.

واتجهت كلٌ منهما في اتجاه مختلف. أروى إلى الحمام وقابلت في طريقها سالي فتبادلتا نظرات ذات معنى، وكارما إلى مكتب المديرة وقابلت في طريقها سليم

الذي كان يعلم بالخطة وقرر مساعدتهم. تفحصت أروى دورات المياه لتتأكد أنهن لا يختبئن في إحدى الكبائن، لا تريد مفاجآت.

أكاد ارى المشهد في مخيلتي بوضوح، أروى تقف أمام المرآة تتأمل وجهها وشعرها الطويل، غسلت وجهها لتخفف من حدة التوتر، سمعت حفيف خطوات، فأجفلت وتطلعت للقادمات من خلفها في المرآة. إنجي تتحرك بثقة رهيبة وتتبعها نرمين بخطوات مترددة ووجهها الممتلئ يتصبب عرقًا من التوتر. نظرت إنجي لها وبينما أروى ما زالت تطالعهم في المرآة، قالت لها:

- ازيك يا أروى؟

لا أعتقد أن أروى أجابتها، لقد كانت تتعمد استفزازها، لا بد أنها ظلت صامتة تتأمل إنجي في المرآة بابتسامة عريضة، ابتسامة النصر. دار ما دار بينهما من حديث، أو لا يسعنا أن نصفه بالحديث لأن أروى كانت صامتة كالأسماك، تحاول أن تطيل حديث إنجي قبل الاشتباك قدر المستطاع وتحاول ألا تجيب أسئلتها حتى تحثها على المزيد من الحديث، لماذا تأخرت كارما الحمقاء!

- لبس وبتستلفي مني، ميك اب وبتاخدي مني، عملتك واحدة من شلتي ورايحة جاية وواخداكِ معايا في كل حتة، دا حتى أختك الهبلة لما كنتِ بتحبي تلبسيها رفد يومين عشان تخلصي منها ومتقعدش تفتن عليكِ لأمك كنت بزق لك عليها العيال يضايقوها عشان تضربهم وتلبس هي مع المديرة.

اختفت الابتسامة من وجه أروى وتبدلت ملامحها و هي تنظر لإنجي وتحدثت لأول مرة منذ بدء المواجهة:

- انتِ اللي كنتِ بتسلطيهم عليا؟

عقدت إنجي حاجبيها بعدم فهم ولم تنبس ببنت شفة.

- أروى اللي كانت بتطلب منك تعملي كدا؟

صمتت إنجي وقد بدأت تفهم رويدًا رويدًا. دارت حولها دورة كاملة وتحسست شعرها المنسدل على ظهرها، إنه مختلف بالتأكيد. لم تلاحظ في بداية الأمر لكن هذا الشعر لونه أغمق ومجعد رغم محاولة فرده الواضحة بمصفف الشعر، وقالت بصوت ساخر:

- انتِ كارما مش أروى!

***

أخد سليم يزرع الممر أمام مكتب المديرة ذهابًا وإيابًا بتوتر وهو ينظر لأروى التي جلست بمنتهى الهدوء تلعب بشعرها الذي صففته على شكل ضفائر ليظن الجميع أنها كارما. ثم وقف وقال لها بعصبية:

- يلا يا أروى نبلغ ميس هدى..

- اصبر شوية.. ملحقوش.

- يا بنتي يلا.. أختك هتتأذي!

- مش هيقدروا عليها دي زي التور.

- هما اتنين وهي لوحدها!

- والله لو ضربوها يبقي نصيبها كدا بقى.

وخلعت العوينات الطبية التي ترتديها والتي آلمت عينيها كثيرًا.

- البتاعة دي صدعتني أوي.. ازاي بتلبسها كارما؟

ثم ضحكت قائلة:

- شوفتني وأنا لابسة لبس كارما إلى قدي مرتين؟

نظر إليها بعدم تصديق فعادت لضحكها قائلة:

- يا ابني فيه إيه! لو إنجي اللي انضربت تبقى تستاهل.. ولو...

- ولو أختك انضربت تستاهل برضو؟!

تركها ودخل مندفعًا إلى مكتب المديرة التي همت بتعنيفه لاقتحامه المكتب بهذه الطريقة الغاشمة. لكنه باغتها قائلًا:

- يا ميس هدى إنجي بتتخانق مع كارما في حمام البنات.

كادت السيدة الخمسينية أن تنطق، لكن قاطعها صوت صراخ مدوٍ من حمام الفتيات. هرولت السيدة لدورة المياه ومن ورائها سليم، مرت في طريقها

بأروى التي تسمرت بمكانها على إثر الصرخة ثم اصطدمت بسالي التي كانت تهرب من دورة المياه صارخة ممتقعة الوجه. اقتربت السيدة من باب دورة المياه، وما لبثت أن خطت خطوة واحدة بداخل المكان حتى انطلقت في صراخ هستيري وسقطت فاقدة الوعي. خطا سليم وأروى فوق جسد السيدة شديدة المراس وتسمروا أمام المشهد، فقد تكومت نرمين على نفسها في ركن دورة المياه وثنت ركبتيها إلى صدرها في وضع جنيني وهي تتنشج كالأطفال، بينما كارما جلست أرضًا تطلق عواءً غير آدمي وهي تحاول جمع خصلات متفرقة من شعرها وتمسحهم من الدماء التي لوثتها ولوثت أرض دورة المياه بأكملها.. دماء إنجي التي سقطت على ظهرها بلا حراك وقد استقر المقص الحاد بتجويف عينها اليسرى.

***

لا أحد كان يعلم ماذا حدث يومها، لا أحد كان يعلم بخطة إنجي ولا خطة أروى الدفاعية، لكن المشهد كان يبدو واضحًا لمن يراه وليس بحاجة لمزيد من الشرح. التزم كلٌ من أروى وسليم وسالي الصمت، بينما شهدت نرمين بعد أسبوع قضته في البكاء الهيستيري والصدمة العصبية أن إنجى هي من بدأت بالتحرش بكارما كالمعتاد، وحيث أن كارما اصطدمت بها دون قصد، لكن إنجي قامت بسبابها ودفعها بعيدًا عنها، فاشتبكت الفتاتان

بالأيدي، سقطت كارما وانتهزت إنجي لحظة سقوطها أرضًا والتقطت المقص من المعدات التي تبقيها عاملة النظافة في الدرج أسفل أحواض الحمام، وجذبت شعر كارما وقامت بقص خصلات منه، فما كان من كارما التي لطالما سبقت يدها عقلها، إلا أن جذبت منها المقص وغرزته بمحجر عينها مرتين متتاليتين، فسقطت الفتاة المشاغبة صريعة عند قدميها.

- وهي إنجي تعرف إن فيه مقص في المكان دا منين؟

سألها الضابط الذي كان يستمع لأقوالها، فقالت بتوتر:

- إحنا كلنا عارفين إن دادة سماح بتشيل مقص هنا عشان بتفتح بيه علب المناديل اللي بتحطها في الحمام.

- يعني المقص دا مش بتاع إنجي؟

- لا وهي إنجي هتمشي بمقص ليه؟

بينما فسرت وجودها في موقع الحادثة وقتها بالصدفة البحتة، حيث أنها كانت ذاهبة لتلبي نداء الطبيعة، وأنكرت تمامًا اتفاقها مع إنجي على إيذاء كارما. كانت كارما تستمع لكل هذه الأحاديث في التحقيقات وهي صامتة تمامًا، لا تنطق، لا تحاول أن تدافع عن نفسها ولا تحاول التفسير.

حاولت كثيرًا أن أفهم منها وأستنطقها، لكنها كانت صامتة وقد تجمدت دموعها في محجريها. فقط ترمي أروى بتلك النظرات الصامتة التي تقول

الكثير، بينما أروى تتحاشى نظراتها. فسر الطبيب النفسي أنها تحت تأثير الصدمة. إن قتل كائن حي ليس بالأمر الهين على أي شخص، وأنها قد تبدأ في الحديث بعد فترة، لكن الوقت لم يكن في صالحنا، فعلى الصعيد الآخر استعان محامي أهل إنجي بتقارير الأخصائية الاجتماعية والشكاوى المحررة بالمدرسة ضد كارما، وشهادات جميع مدرسينها على مدار سنوات دراستها ليثبتوا أنها طفلة عدوانية تميل لاستخدام العنف الجسدي، وأنه من الخطر أن تُترك حرة طليقة.

كنت أتفهم استماتتهم على حق ابنتهم الصريعة، وقفت عاجزة قليلة الحيلة، أحاول إنقاذ كارما بلا أمل. أحبطني ذلك المحامي مرموق الاسم الذي يمت لي بصلة قرابة حين اتطلع على ملف القضية وهز رأسه بائسًا:

- هي للأسف لابساها، لأن كان فيه شاهدة على اللي حصل دا كله وبصماتها على المقص كمان.

- بس كانت بتدافع عن نفسها!

- لكن البنت ماتت. ويعدين البنت مكنتش بتحاول تقتلها، آه كانت خناقة وقصت لها شعرها وأنا متفهم.. لكن كارما اللي طورت الموضوع لاستخدام المقص في القتل.

تنهدت وأطرقت رأسي، ثم نظرت له بصمت محاولة أن أستنطقه.. فقال:

- النائب العام هيطلب إنها تتحجز في مستشفى العباسية للصحة النفسية ٤٥ يوم تحت الملاحظة المكثفة، وهتتعرض على كنسولتو دكاترة نفسيين يحددوا حالتها النفسية. ولو ثبت إن عندها اضطراب عقلي هتدخل مصحة تبع السجن مش سجن.

نظرت له باكية فقال بهدوء:

- صدقيني تدخل مصحة تبع السجن أفضل كتير ما تدخل الإصلاحية مع العيال المسجلين خطر.

استجمت شتات أفكاري وسألته:

- طب.. طب هتقعد قد إيه؟

- المحكمة هتحدد.

فصحت بعصبية في وجهه:

- يعني قد إيه بالتقريب يعني؟

أطرق رأسه وقال بصوت منخفض:

- مش أقل من ٧ سنين.

سقطت الجملة على رأسي كالصاعقة. طفلتي! ماذا أفعل يا إلهي!

***

قضيت ليلتي يومها أبكي وأنا أتأمل صورها وهي طفلة رضيعة تحبو. ثم صورها وهي تخطو خطوتها الاولى. أدركت أنني لم أكن أهتم بالتقاط الكثير من الصور لها مثل أروى، فكنت أجد صورتين لها مقابل عشرات الصور لأختها.. رباه! كم أهملتها بشدة! لقد صببت جم اهتمامي على أختها، لأنها الأذكى والأجمل، لأن اهتمامي بها كان أسهل ولا يستدعي المجهود الذي كنت سأبذله لأعتني بكارما، لقد أخفقت.

لا أذكر متى غفوت ليلتها، لكن نومي كان سيئًا مليئًا بالكوابيس. استيقظت صباحًا على صوت أروى الخافت تنبهني أنها العاشرة صباحًا، وأنها سوف تذهب إلى السوق لتبتاع بعض الأغراض والجرائد من أجلي. هززت رأسي متفهمة ونهضت متثاقلة، ربما كوبًا من القهوة يساعدني على التوازن.

جلست أحتسي قهوتي في الحديقة شاردة، وبرونو جرونا الظريف يلعق قدمي محاولًا أن يخفف عني حزني، شعرت بالشفقة عليه، صار يبيت ليلته خارج المنزل منذ حادث البنات. دق جرس الباب، فنهضت متثاقلة لأفتح، وجدت سليم زميل أروى وكارما يقف على الباب متوترًا. سمحت له بالدخول، فجلس على طرف المقعد وقال بعدما طال الصمت:

- يا طنط فيه حاجة حضرتك مش عارفاها ولازم تعرفيها، بس أنا مش هشهد بيها قصاد حد.. الكلام دا لحضرتك بس.

كانت أروى تدس المفتاح في الباب حين فتحه سليم، وكاد أن يصطدم بها وهو راحل. وقفت تطالعه في مزيج من التوتر والغضب وعدم الفهم، لكنه أشاح بنظره بعيدًا عنها وانصرف، وظهرت أنا من خلفه. تبادلنا نظرات صامتة ثم دلفت إلى الداخل فركضت خلفي قائلة:

- سليم كان هنا ليه؟

لم أجِبها، فأصرت على السؤال:

- يا ماما.. ردي عليا سليم كان هنا ليه؟

نظرت لها بصمت فانهمرت الدموع من عينيها، ربما للمرة الأولى في حياتها أراها تبكي.

- سليم حكى لي يا أروى.. حكى لي عن خطة إنجي وخطتك انتِ وكارما اللي انتِ غيرتيها.

زادت دموعها انهمارًا:

- سيبتي أختك تلبس؟ هانت عليكِ؟ وهي اللي ضحت بنفسها ولبست لبسك وعملت نفسها انتِ بعد ما أقنعتيها تعمل كدا، ودخلت مكانك الحمام وهي عارفة إن إنجي ناوية تأذيكِ، وتقولي لسليم لا سيبها شوية ملحقوش لسه ولو كارما اللي اتضربت تبقى تستاهل؟ مش دا اللي قولتيه لسليم؟

صاحت من وسط دموعها:

- أنا اتأخرت دقيقتين بس عن الاتفاق!

صحت بها وأنا أهزها بعنف:

- دقيقتين كانوا كفاية أوي عشان إنجي تقص لها شعرها، وانتِ عارفة كارما مكنتش هتسكت! بتسلطي على أختك بنات تضايقها وتتريق عليها يا أروى؟ انتِ؟! بتعملي في أختك الغلبانة كدا!

وجلست أرضًا أبكي غير مصدقة، أي بؤس شعرت به كارما المسكينة وهي تنتظر أختها التي من المفترض أن تأتي بالنجدة في الوقت المناسب، وهي تثق بيها كليًا، بينما الأخرى تقف بالخارج تضحك وتنتظر هزيمتها!

جلست بجواري محاولة احتضاني مرددة عبارات الأسف، لكنني كنت أبعد يدها، لم أستطع أن أتحمل لمساتها. مسحت دموعي ونهضت وارتديت معطفي، ثم جذبتها من يدها لإجبارها على النهوض:

- يلا..

- على فين بس يا ماما؟

- على المحامي.

- هنعمل إيه عنده؟

- هتحكي له الكلام دا، شهادتك ممكن تخفف عن أختك.

- لا مش هتفرق، إنجي ماتت، شهادتي مش هتفرق.

- لا هتفرق طبعًا.. لما يعرفوا إن البنت كانت مبيتة النية لأذيتك أو أذية أختك وداخلة بالمقص مش لقيته صدفة زي ما البت التانية حكت.. الموضوع أكيد هيختلف في الحكم، هتبقى أختك بتدافع عن نفسها.. يلا يا أروى..

- مش هيفرق صدقيني!

- طب نروح للمحامي وناخد رأيه!

- أنا مش هقول حاجة.

- نعم؟!

اعتدلت في وقفتها وصمتت لوهلة ثم تحدثت:

- ماما.. ممكن نهدى ونفكر بالعقل؟ اسمعيني، اللي حصل حصل، وكارما خلاص مش هتطلع.. بلاش تبوظي صورتي أنا كمان قصاد الناس.. كفاية واحدة من بناتك.. خلي التانية شكلها كويس على الأقل.. متخليش الناس تبص لنا إحنا الاتنين بصة اتهام وإننا تالفين!

سقط حديثها كالصاعقة على رأسي! يا إلهي! لا أصدق ما تقوله!

أي مسخ هذا الذي حملته في أحشائي؟ من أين لها بهذه الشخصية الشيطانية والأفكار حالكة السواد؟

جذبتها قصرًا من ذراعها صائحة:

- يلا يا أروى..

فصرخت وهي تدفعني:

- مش هروح معاكِ في حتة.. ولو أخدتيني بالعافية للقسم عشان أشهد هقول إنك بتقولي أي كلام عشان تطلعي كارما وخلاص وأنا معرفش حاجة.

سقطت الصفعة الحادة على وجهها فأسقطتها أرضًا، وقلت لها بصوت حاولت أن أجعله واثقًا هادئًا لكنه خرج مني مهزوزًا:

- هتيجي معايا القسم وهتشهدي.. إن مكنش عشان خاطر أختك.. هيبقى عشان خاطري يا أروى!

***

وقفت أمام الضابط وإلى جواري أروى، بينما المحامي يتحدث إلى وكيل النيابة مطالبًا بإعادة استجواب الفتاة نرمين ومواجهتها بالحديث الذي سوف تقوله أروى الآن.

- أنا معنديش حاجة أقولها.

صمت الضابط ونظر لي بحيرة، فلكمتها في ظهرها أن تتحدث، قالت باكية:

- بص حضرتك ماما عايزاني أقول حاجات أنا معرفهاش، عشان عايزة تطلع كارما وخلاص.

- يا بنتي لو عارفة حاجة عن الموضوع وخايفة من حد قوليلي، أنا هحميكِ!

تدخل المحامي قائلًا:

- يا فندم أخت موكلتي قالت لوالدتهم النهاردا إنها كانت عارفة إن إنجي رايحة معاها مقص، يعني سبق إصرار وترصد.. أداة الجريمة جات عن طريق إنجي أصلًا مش مقص عاملة النضافة اللي كان موجود بالصدفة في المكان زي ما الشاهدة نرمين ادعت، أنا بطالب بإعادة استجوابها وكمان تفتيش الحمام اللي تمت فيه الجريمة، لأننا هنلاقي المقص بتاع عاملة النضافة في مكانه الذي لم يستخدم، أكرر لم يستخدم.. إنجي كانت داخلة بمقص، وبكدا مجرى القضية هيتغير تمامًا..

هز الضابط رأسه موافقًا وأشار لأروى:

- الكلام دا صحيح يا بنتي؟

لم تجبه وأطرقت برأسها أرضًا، فعاد يحدثها:

- يا ريت لو عندك حاجة تقوليها اتكلمي ومتخفيش.. دي حياة أختك وعمرها يا بنتي!

- معنديش حاجة أقولها.

كدت أنهال عليها صفعًا ولطمًا، لكن الضابط أمر بإخراجي للخارج، فجذبني المساعد برفق بعيدًا عنها. وفي الأيام التالية تم إعادة استجواب نرمين وسليم أيضًا، وكلاهما أنكر القصة الحقيقية تمامًا. رمقني يومها سليم لائمًا وهو يغادر غرفة الاستجواب ولا أذكر أنني رأيته مرة أخرى بعدها. وأمر وكيل النيابة بتفتيش دورة المياه بحثًا عن المقص المزعوم الذي قد يحول مجرى الأحداث تمامًا، لكنهم لم يجدوه، وبسؤال عاملة النظافة المذكورة أكدت أنها وضعته يوم الحادث صباحًا في مكانه بداخل الدرج.

جلست الشابة الريفية أمام وكيل النيابة تتأمل اللوحات الذهبية الثمينة المعلقة على الحائط وهي ترتجف شاعرة بالتضاؤل.

- هو دا المقص يا ست سماح؟

أخرج الضابط كيسًا بلاستيكيًا بداخله مقص معدني حاد. تأملت المقص وتصبب وجهها عرقًا، ثم هزت رأسها موافقة.

- متأكدة إن دا المقص العهدة بتاعك؟ بتاع الحمام؟

فعادت تهز رأسها موافقة.

- انتِ عارفة إنك لو بتكذبي هتضيعي مستقبل البنت؟

- مبكذبش يا بيه.

- يعني محدش خوفك مثلًا ولا إدالك فلوس كدا ولا كدا؟

صمتت قليلا ثم أجابت:

- محصلش يا بيه.

- طب باصة في الأرض ليه يا ست سماح؟ بصي لي وانتِ بتجاوبي كدا!

تلاقت عينها بعين الضابط للحظة ثم عادت تنظر للأرض قائلة:

- العفو يا بيه، العين متعلاش عن الحجاب.

- ماشي يا ست سماح، اتفضلي انتِ.

لعل مساعده الضابط الشاب الذي كان يحضر التحقيق جلس أمامه وناقشه أنه يشم رائحة كذب السيدة الريفية مثلما يشم رائحة عرقها النفاذة، فيؤكد كلامه وكيل النيابة، لكنهم لا يجدون خيطًا واحدًا ليتمسكوا به، الشاهدة الوحيدة ما زالت متمسكة بأقوالها، وأداة الجريمة تصر عاملة النظافة أنها كانت في الحمام قبل دخول الفتيات.

- يمكن أهل إنجي دافعين لها عشان ميتقالش إن كارما كانت بتدافع عن نفسها وتاخد حكم دفاع عن النفس؟

- وارد.. بس مفيش إثبات للأسف.

- يبقي البنت هتتعرض على لجنة طبية من مستشفى العباسية ويا تاخد حكم يا تتحول للمصحة.

- للأسف دا اللي هيحصل.

وبالفعل، في خلال أسابيع قليلة، قام القاضي بتحويل حالة كارما للجنة الطبية للكشف على قواها العقلية، ثم صدر الحكم بحبس كارما في الخانكة لمدة عشرة أعوام.

***

تركت الأجندة أرضًا وأنا أرغب في التقيؤ من فرط التقزز، ركبتي اليسرى لا تكف عن الارتجاف، حتى أنني اضطرت أن أمسكها بكلتا يديّ لأجبرها على التوقف، أشعر بدوارٍ رهيبٍ. نهضت مترنحًا، عرجت لباب البيت مستندًا إلى الحائط حتى خرجت إلى الحديقة، أريد أن أستنشق بعض الهواء النقي.

رباه! أي شيطانة تلك التي أحببتها؟ قضت على حياة أختها بدماء باردة وبلا سبب واضح! لقد كانت كارما تسعى لحمايتها بالرغم من كل شيء، بينما هي لم تكِن لها سواء كل مقت، والأدهى أنها كراهية بلا مبرر. إن كارما كانت لديها كل دوافع الغيرة والكراهية من أروى، لو انعكست الأدوار لتفهمت موقف كارما، لكن أروى ما هي دوافعها لتفعل ما فعلته بأختها البريئة؟!

لا عجب أنها تريد أن تغلق هذا القبر على الدليل الوحيد التي يفضح قبحها الشديد المختبئ وراء وجهها الملائكي، كل هذه الصور والخطابات كذلك.. لا

بد وأنها تحمل شيئًا بين طياتها أيضًا، لا بد أنها توضح جوانب أخرى من القصة.

تأملت السماء الصافية ونور الشمس البهيج الذي تسلل إلى قلبي ليهدئ من روعي قليلًا، لقد قضيت الليلة بأكملها ساهرًا أطالع مذكرات السيدة نادية، التي على الرغم من أنها لم تنتهِ بعد، إلا أنها كشفت لي الكثير، وعقدت كثيرًا من الأمور.

رمقت حوائط البيت الرمادية باشمئزاز، أشعر بالنفور من البيت الكئيب، ولم تعد لدي أي رغبة بالعودة إليه مجددًا، إن البيت يحوي طاقة سلبية رهيبة، هذه الحوائط احتوت بين جوانبها كمًا هائلًا من الكراهية والغضب لفترة طويلة من الزمن، لكنني أريد أن أستكمل قراءتي لبقية حديث أمهما في المذكرات. كم أن تلك الخطابات تبدو لي مكتنزة ومغرية للغاية!

لا مفر إذن من العودة لأجلب باقي أغراضي وباقي الخطابات على الأقل، حين أنتهي من كل هذا، سوف أقرر ما سأفعله بصدد هذه الفتاة.

أين هاتفي؟! لا أذكر أنني رأيته طوال الأمسية، لا بد أني نسيته بالغرفة.

وأين برونو بالمناسبة؟

عدت إلى القبو مناديًا على برونو، فخرج إليَّ من الغرفة واستجاب لندائي بالترحيب والقفز حولي محاولًا تقبيلي. لقد تسلل ليلًا عائدًا إلى الغرفة، يبدو أنني اندمجت في القراءة لدرجة أني لم أشعر به يغادر مجلسنا.

داعبت أسفل ذقنه متأملًا:

- يعني انت صاحب أروى من زمان بقى؟ يا ترى إيه السبب إنك عضيتها؟ مامتهم قالت حاجة عن حادثة البنات بس متكلمتش في التفاصيل واللي من بعدها بقيت تبات برا البيت، كان قصدها على إنك عضيت أروى صح؟ أنا متفهم دلوقتي سبب علاقتكم المتوترة.

أخذ يقفز حولي قليلًا ثم تركني وعاد إلى الغرفة المظلمة، ولم يعد إليَّ مجددًا.

- برونوو.. تعالى.. برونو..

لكنه لم يأتِ. تحركت بخطوات متثاقلة لداخل الغرفة المعتمة، وقفت لدقيقة حتى تعتاد عيني الظلام وأستطيع تحديد أبعاد الغرفة حتى لا أصطدم بالصناديق، ثم بدأت أرى خياله يقف هناك ويعبث بالأرض ويحفر في بقعة ما.

- برونو تعالى هنا!

لكنه لم يستجِب. وتعالت زمجرته، يبدو لي منهمكًا بشدة في الحفر، ماذا هناك؟!

تحسست الأرض في الموقع الذي جلست به أمس أتفحص الصناديق وأبحث عن هاتفي، ثم ضغطت زر ساعتي الذكية لتبث إشارة إيجاد الهاتف،

سرعان ما تألقت شاشة الهاتف وهي تنبهني لمكانه. التقطه من داخل صندوق الخطابات وتفحصته..

١٣ مكالمة فائتة! اتصلت أمي كثيرًا، لا بد أن القلق يقتلها، المسكينة لم تعتد أن أمضي ليلتي خارج المنزل. أروى كذلك اتصلت كثيرًا.

- وبعدين يا برونو؟ هنفضل قاعدين في الضلمة دي كدا؟ لا عارفين نشوف حاجة في الأوضة ولا نهبب حاجة.

إنني بحاجة لإنارة الغرفة بشدة، خرجت من الغرفة إلى القبو أبحث عن المصابيح على ضوء الهاتف، أذكر أنني رأيتها في مكانٍ ما. وجدت بعضهم بالفعل في أحد الأركان، تركت الهاتف على أحد الصناديق وأخذت أتفحص المصابيح لاختار المناسب منهم للغرفة، ثم عدت بعد قليل للغرفة بأحدهم ومقعد صغير متهالك وجدته. وقفت على المقعد وقمت بتركيب المصباح بحرص شديد.

- هانت اهو يا برونو.. ثانية كمان والأوضة تنور تاني.

زمجر الكلب وصوت أظافره ما زالت تنبش الأرض بعصبية.

- بتعمل إيه يا برونو بس؟ أنا عارف انت بتنكش عشان جعان و...

أضاءت الغرفة أخيرًا! أغمضت عيني للحظات حتى لا تحترق شبكية عيني من النور الساطع، ثم عدت أفتحها ببطء وأتأمل معالم الغرفة وأنا ما زلت متعلقا فوق المقعد المتهالك.

الصناديق الثلاثة تتناثر حول المقعد الذي أقف عليه حاليًا، وبرونو هناك في ركن الغرفة ينبش الأرض الرملية، وقد نجح في حفر حفرة ليست بالهينة أبدًا، أراها الآن بمنظار علوى من مكاني هذا. الرائحة خانقة للغاية، أنفي يتقلص باشمئزاز، برونو يجذب شيئًا ما من الحفرة وقد تصلب جسده بعصبية. يطبق فكيه على هذا الشيء عاجي اللون، يبدو صلبًا على الرغم من كونه دقيق للغاية، لا أعلم لمَ.. لكن هذا الشيء يبدو لي كالعظام بشدة!

ربما لأنها ببساطة عظام!

***

سقطت عن المقعد أرضًا وتراجعت زحفًا إلى الخلف وعيني لا تفارق برونو وما يمسكه بفكيه، حاولت الصراخ لكن صوتي خذلني وهرب، فبقيت في مكاني أحاول أن أتنفس، لكن هيهات. شعرت أن الهواء ثقيل للغاية ويأبى أن يدخل رئتي، أما ساقي فقد أصابها الشلل.

تمددت أرضًا محاولًا أن أهدأ، لكن الأمر كان شبه مستحيل مع وجود بقايا جثة أحدهم على بعد متر واحد مني، ظل جسدي يعرق بغزارة ويرتعش،

ثم أظلمت عيني تمامًا. و حين استيقظت، ربما بعد دقائق أو بعد ساعات، لا أعلم كم لبثت، كان برونو يلعق وجهي بذعر محاولًا أن يساعدني أن أنهض. فحاولت النهوض بالفعل، لكن قدمي كانت لينة كعودي معكرونة مسلوقة بعدما احتبس عنها الدماء طوال فترة فقداني لوعيي بسبب ثقلي عليها، فجلست أرضًا مجددًا أرتجف، لكنني كنت أهدأ نوعًا ما وقد مرت نوبة هلعي.

انتظرت دقيقة أخرى ونهضت مستندًا إلى الجدار بحذر لأتأكد أن ساقي صارت على ما يرام. حسنًا، يمكنني أن أمضي قدمًا. تحركت تجاه باب الحجرة بالسرعة التي تسمح لي بها ساقي، لكنني التفتُّ لأرمق الحفرة بطرف عيني، صوت داخلي يصيح في خلفية عقلي أن أهرب وأبتعد عن هذا البيت تمامًا وهذه الفتاة، لكن فضولي كان أقوى من رهبتي ومن صوت عقلي، فوجدتني أعود للحفرة ببطء.

اقتربت بحذر محاولًا ألا أسقط بسبب برونو الذي يجري ويعرقل ساقي، يبدو أنني فقدت وعيي لوهلة ليست بالقليلة، مما سمح لبرونو بالحفر أكثر حول الهيكل، لأنني أستطيع الآن أن أرى عظمة الساعد بأكملها تبرز من الحفرة وقد تم جذبها بقوة، فظهر كذلك بقايا قميص أزرق اللون يخفي باقي الهيكل الذي يتوارى تحت التراب.

نظرت حولي فوجدت عصا ملقاة بإهمال في ركن الغرفة، فحملتها، أخذت نفسًا عميقًا وحاولت جذب القميص لأجذب الهيكل خارج الحفرة، لكن

الأمر كان صعبًا، هناك أطنان من الرمال تخفي ما تبقى منه. الأمر يحتاج معدات وليس مجرد عصا، وقفت أرتجف وأراقب المشهد المهيب، لا أدري ماذا أفعل، أنا الآن أقف فوق قبر مجهول لأحدهم في منزل الفتاة التي أحبها والذي كنت على وشك أن أنتقل إليه لأتزوجها.

عبثت بالعصا في الرمال شاردًا، فاصطدمت العصا بأشياء أخرى، ورقة متكومة حول نفسها تدحرجت تحت قدمي، وشيء آخر مربع الشكل. التقطتُّ الورقة المطوية ثم حفرت من حول هذا الشيء مربع الشكل وأخرجته. جاهدت لأستطيع أن أفرد الورقة، إنه خطاب يشبه تلك الخطابات الموجودة في الصندوق، لكن معظمه صُبغ بلونٍ أحمر قانٍ، لعلها دماء! دماء طمست معظم الحبر الذي كتبت به كلمات لم أتبين منها سوى جملة واحدة في نهاية الخطاب: "وكارما اللي خرجت من المصحة دي تروحي تدوري عليها وتستقبليها يا إما انسي إن ليكِ خالة من أصله".

خطاب آخر من خالتها إذن، تخبرها بخروج أختها من المصحة، أما الشيء المربع لم يكن سوى محفظة شخصية، فتحتها فوجدت صورة لأروى وكارما سويًا وهما طفلتان، تحتضنان بعضهما البعض. فحصت المحفظة فوجدت بعض الأوراق المالية وبطاقة هوية أيضًا، "كارما نبيل محمد قاسم".. يا إلهي!

إذن، أنا أقف أمام ما تبقى من جثة كارما!

خرجت من الغرفة مسرعًا قبل أن أُصاب بنوبة هلع أخرى، وقفت تحت ضوء الشمس أتنفس الصعداء وقد قررت أن أرحل وأتصل بالشرطة لتأتي ويستخرجوا الجثمان ويحققوا في قتلها، يضعون الأصفاد في يد هذه اللعينة.

أين هاتفي؟ تحسست جيبي.. تبًا!

لا بد أنه سقط مني مجددًا بداخل الغرفة!

برونو أيضًا ما زال بالداخل ينبش القبر ولا يريد أن يخرج. حسنًا.. سوف أعود سريعًا لآخذ الهاتف وبرونو كذلك، أعلم أن إخراجه من المكان صعب، لكنني لن أتركه يعبث بالهيكل، فقد يفسده حتى تأتي الشرطة. عدت لداخل المنزل أولًا وأخذت باقي الخطابات ومذكرات الأم ووضعتهم بحقيبتي على عجلة، لا بد لي أن أفهم، أنا أعلم جيدًا أن قراءة هذه الخطابات وباقي المذكرات سوق تساعدني على ربط الأحداث أكثر. إن ما قرأته ليست سوى قصة غامضة غير مكتملة مليئة بالثغرات، قصة فتاة عابثة أدت إلى حبس أختها بالمصحة العقلية، لكنها بالتأكيد لا تنتهي بقتل أختها ودفنها سرًا في القبو بهذه السهولة محاولةً طمس كل ما يتعلق بالقصة أيضًا! أريد أن أفهم ماذا حدث.

ارتديت حذائي متعثرًا، واستدرت لأغادر المنزل، فوجدت أروى في وجهي.

***

الخطاب الأول من مجموعة الخطابات التي وجدتها.

المرسل: مستشفى العباسية للصحة النفسية – قسم ٨ غرب

المرسل اليه: أروى نبيل.

العنوان: القاهرة – العادي – شارع ٩ فيلا نبيل قاسم

عزيزتي أروى..

كيف حالكِ؟

لا تأتين لزيارتي مع أمي منذ بداية الأمر، لعلكِ تخافين من لومي لكِ أم أنكِ تخافين نظراتي الصامتة؟

لا أظن.. فمثلكِ أوقع من أن يشعر بالذنب، لقد فات أوان اللوم .. أنتِ لم تتصدي يومها أمامهم جميعًا وفضلتِ أن تتركيني أدفع ثمن شيء لم أقترفه، لقد تأقلمت مع فكرة أنكِ ألقيتِ بي الى التهلكة عمدًا، مثلما تأقلمت مع فكرة أنكِ كنتِ دائمًا وراء الشاجرات التي كانت الفتيات يفتعلنها معي.

لا أبالي كثيرًا في الواقع..

كالعادة.

***

تسمرت في مكاني وانا اتطلع اليها تقف هناك عند باب المنزل وتسد على طريق الخروج

تبتسم ابتسامتها الملائكية المشرقة وهي تتأملني. استجمعت قوتي بصعوبة لأستطيع أن أُخرج صوتي هادئًا:

- رجعتِ بسرعة كدا؟!

- قلقتني عليك يا هاني.

- ليه؟ أنا كويس.

- من امبارح بتصل بيك مبتردش واتصلت بمامتك قالت لي إنك مروحتش البيت.

- أيوا.. فضلت هنا عشان أكمل دهانات.

- مكنتش بترد ليه طيب؟

- معلش مسمعتش الموبيل بس.

- موبيلك كان جنبك يعني ومسمعتوش؟

- آه يا أروى.. فيه إيه؟ هو تحقيق ولا إيه؟

وانشغلت بربط رباط حذائي لأتحاشى نظراتها الثاقبة، فقالت:

- بس انت موبايلك مش معاك يا هاني!

نظرت لها متظاهرًا بعدم الفهم، فاتصلت بهاتفي من هاتفها، رن جرسه وأخرجته من جعبتها مبتسمة.

- موبايلك كان تحت في المخزن.

لم أجبها، ومرت لحظات من الصمت بينما دخلت هي لتجلس على المقعد المواجه لي.

- أنا عرفت إنك وصلت للأوضة. أصلي سمعت كلامك وركبت كاميرات في البيت، في المخزن تحت فيه كاميرا، كل شوية بفتح وأتطمن على المكان من موبايلي.

تصببت عرقًا لكنني تماسكت، فأكملت كلامها:

- ولما جيت دلوقتي، دخلت على المخزن الأول لقيت موبايلك مرمي في المخزن وعرفت إنك فتحت الصناديق وأخدت مذكرات مامي كمان ولقيت...

قاطعتها أنا بصوت خفيض:

- ولقيت كارما..

صمتت للحظة ثم عادت تهمس:

- ولقيتها..

- انتِ كنتِ فاكرة إن محدش هيلاقيها؟

أطلقت زفرة حارة:

- الصراحة لأ.. معملتش حساب لفضولك ونبشك ورا حاجات متخصكش يا هاني.

ثم نهضت واقتربت مني وقد تبدلت ملامحها، فاسودَّ وجهها وهي تضغط على أسنانها بعصبية شديدة، وهمست بوحشية تليق بما يعتمر بداخلها:

- حاجات من قلب ماضي ميهمكش.. بتدور فيها لييييه؟!

وأخرجت سكينًا حادًا لامعًا من بين طيات ثيابها، ولامست بيه جبهتي بهدوء هامسة بنفس الوحشية:

- مبسوط دلوقتي إنك بوظت كل حاجة؟ ها؟ مبسوط؟

***

الخطاب الثاني من مجموعة الخطابات التي وجدتها:

المرسل: مستشفى العباسية للصحة النفسية – قسم ٨ غرب

المرسل اليه: أروى نبيل.

العنوان: القاهرة – المعادي – شارع ٩ فيلا نبيل قاسم

عزيزتي أروى..

لقد مر عامان منذ راسلتكِ آخر مرة. لا.. لم أشتق اليكِ إذا كنتِ تتساءلين، لقد أخبرتني أمي في زيارتها الأخيرة أنكِ وقعتِ عقد روايتكِ الأولى وأنكِ سعيدة للغاية، وانني لأتساءل حقًا عن طعم السعادة، كيف يبدو هذا الشيء يا أروى؟ أخبريني! سامحيني فأنا لم أتذوقه منذ ملكوتي في سجني هذا.

أتمنى أن تقبّلي يا توأمي.. أتمنى أن تقبّلي من كل قلبي، لعلكِ تتذوقين بعضًا من مشاعري.

كارما.

***

تراجعت للخلف بضع خطوات فاصطدمت ساقي بأحد المقاعد لأسقط أرضًا، بينما هي تقترب قائلة:

- بس الغلط عليا.. أنا اللي فتحت لك الباب أوي بعد ما كنت قفلت كل الأبواب.. وثقت فيك أوي بعد ما كنت نسيت معني الثقة.. سبتك تقرب مني وتخترق مساحتي رغم إني على مدار سنين مكنتش بستحمل لمسة واحدة من أي حد.. سايباك عمال تنور جوانب في حياتي بعد ما كنت كرهت النور بكل كياني..

نهضت مستندًا إلى الجدار وأنا ما زلت أتراجع بعيدًا عنها قائلًا:

- ممكن تهدي يا أروى!

- أنا حبيتك بجد يا هاني.. عمري ما حبيت أي حد.. بس انت.. أنا حبيتك بجد.. مكنتش مصدقة إنك بتحن عليا كدا وبتحاول تقبلني زي ما أنا رغم إني وحشة.. مش حلوة زيها.. رغم إني مليانة نقاط ضعف مش واثقة وقوية زيها..

- ممكن تنزلي السكينة عشان نتكلم!

- مكنتش مصدقة إني هلاقي حد يحن عليا بعد سنين الوحدة دي مرمية زي الكلب هناك لوحدي.. لوحدي تمامًا.. دا أنا لو كنت كلبة كانوا هيسألوا عليا.. لو كنت برونو الكلب بتاعهم كان زمانهم اهتموا عن كدا.. برونو اللي

قطع لي صباعي وأنا طفلة.. ومهتموش إنهم يضربوه حتى أو يأدبوه.. كأنهم بيأكدوا لي إنه أغلى وأهم مني عندهم.

- أروى.. أرجوكِ..

- دورت في الماضي ليه يا هاني؟ أنا بقالي سنتين بحاول أقفل الصفحة دي وأبدأ من جديد.. نبشت الماضي ليه؟ آديك قريت مذكرات مامي والجوابات وعرفت هي عملت إيه.. تفتكر هي تستحق إنك تدور؟ تستحق إنك تتعب نفسك وتبوظ حياتنا عشان تكتشف حصلها إيه؟

وأشارت بالسكين على عنقها قائلة:

- صدقني يا هاني.. انا لو رجع بيا الزمن هقتلها ألف مرة..

رنت الجملة الأخيرة في عقلي بشدة وبدأ يربط الأحداث بعضها ببعض، يخبرني بفكرة مجنونة لكنها الأقرب للصواب. توقفت عن التراجع وقلت لها بصوت يرتعش من رهبة الموقف:

- انتِ كارما.. مش أروى!

***

الخطاب الثالث من مجموعة الخطابات التي وجدتها:

المرسل: مستشفى العباسية للصحة النفسية – قسم ٨ غرب

المرسل إليه: أروى نبيل.

العنوان: القاهرة – المعادي – شارع ٩ فيلا نبيل قاسم

عزيزتي أروى..

أتابع صورك على فيسبوك، إنك تزدهرين! على عكس ما كنت أقرأه قديمًا في الكتب عن ضيق أحوال الظالمين وكيف تسود وجوههم بسبب ظلمهم ولا تمضي أمورهم على ما يرام، لكن يبدو أن كل هذا هراء، مجرد مسكن عبثي يكذبون به على المظلومين، وأنتِ خير مثال. إنكِ تنعمين بحياتكِ، وتمضين عقد كتابكِ الثاني بعدما حقق الأول نجاحًا منقطع النظير. تمسكين القلم بثقة وتبتسمين في الصورة. أتأمل يدك السليمة مكتملة الأصابع وأقارنها بيدي ناقصة الإصبع بسبب حيوانك الأليف المتوحش الذي لطالما كرهني.

أراقب انفعالاتكِ وأنتِ تتحدثين بثقة في اللقاءات الصحفية وتحتضنين إحدى المعجبات في الصور. أحسدكِ لقدرتك على التألق، على عكسي أنا التي صرت أضعف وأخجل مما كنت بمراحل قبل دخولي هنا.. لا اطيق النور بسبب اضاءة الكشف التي توقظني به الممرضة القذرة في وجهي يوميًا متعمدة ازعاجي. لا أطيق اللمس، بعدما انتهكت الممرضات حرمة جسدي وهن يتعمدن اهانتي بلمس المناطق الحساسة بجسدي، أراك تشاركين صورك وأنتِ

تتعلمين قرع الطبول.. مرحى! لعلكِ لم تسمعي بحياتكِ عن غرفة العقاب ها هنا.

لذن أصدقكِ عنها يكفي أن أقول لكِ أنني لم أرتدها سوى بضع مرات فقط، فصرت لا أطيق حتى أقل الأصوات خفوتًا. كم أتمنى أن أراكِ هنا في مكاني ولو ليومٍ واحد.

هانت.. ثلاثة أعوام أخرى.

كارما

***

أشاحت كارما بنظرها بعيدًا عني وهي تداري الدموع التي تجمعت في مقلتيها:

- محدش فيهم حس بيا.. حتى مامي اتشغلت بنفسها.. زعلت أوي إنها أهملتني واهتمت بأروى.. فبدل ما تعوضني وتحاول تهتم بيا عشان تصلح اللي عملته، لا.. ركزت مع زعلها هي واكتئابها هي.. وفي الآخر تخيل عملت إيه عشان تخلص من عقدة الذنب؟ انتحرت..

وأخذت تضحك بهستيريا وقد اختلطت ضحكتها ببكاء متواصل، تضحك وتبكي.. وتبكي وتضحك. لم أنطق بحرف، لم أجد ما أقوله أمام كل انفعالاتها تلك.. يا إلهي!

جلست أرضًا، فلم تعد ساقي قادرة على حملي.

***

الخطاب الرابع من مجموعة الخطابات التي وجدتها:

المرسل: مستشفى العباسية للصحة النفسية – قسم ٨ غرب

المرسل اليه: أروى نبيل.

العنوان: القاهرة – العادي – شارع ٩ فيلا نبيل قاسم

رحلت أمنا.. بكيت وحيدة ولم أجد من يواسيني في هذا السجن، كنت أتمنى أن نكون سويًا لنتقاسم هذا الحزن معًا، لا أريد أن أتجرع الحزن وحدي، هذا حزن لا قبل لي به من قبل. لم أتخيل أنني سوف أحزن وأجزع عندما أسمع بخبر موتها إلى هذا الحد.

لا أخفيك خبرًا، لقد تمنيت أن تكوني أنتِ مكانها وليست هي، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

كارما.

***

أكملت كارما حديثها بعدما تمالكت أعصابها:

- أروى عاشت حياتها ونجحت.. نجحت أوي.

يمكن كان فشلها الوحيد إنها كانت وحيدة، محدش بيقرب منها.. معرفش ليه، يمكن لعنتي؟ تفتكر؟ مش عارفة.. بس هي كانت دايمًا لوحدها، دايرتها كبيرة لكن برضو لوحدها. نجحت في الكتابة جدًا.. طبعًا.. لو مش دي اللي هتنجح إنها تألف قصص مين اللي هينجح؟

وسابت المكتب اللي كانت بتشتغل فيه مهندسة، وتفرغت للكتابة، حولت البيت لمقر الوحي والإلهام ومبقتش تخرج منه غير وهي مخلصة الرواية وتروح تمضي العقد وتاخد فلوس، وأحيانًا بتزور خالتنا في دار مسنين في إسكندرية، دي كانت حياتها زي ما كانت بتحكي في أي لقاء صحفي، ودا سهل عليا أوي خطتي. ما افتكرش ولا مرة طبعًا خلال ١٠ سنين إنها تسأل عني رغم إن خالتي اللي كانت بتبعت لي جوابات تسأل عني، كانت بتقولي إنها دايمًا بتفكرها بيا، لكن هي حقيقي ما اهتمتش.. زي ما يكون أنا كنت بزاحمها في حياتها.. هم وانزاح، ولا حتى ركزت إنها تهتم وتحسب معاد خروجي من المصحة، هي نسيت وجودي من الأساس وماعملتش حساب إني أكيد في يوم من الأيام هخرج، ودا كمان سهل عليا خطتي.

***

الخطاب الأخير من مجموعة الخطابات التي وجدتها:

المرسل : مستشفى العباسية للصحة النفسية – قسم ٨ غرب

المرسل اليه: أروى نبيل.

العنوان : القاهرة – العادي –شارع ٩ فيلا نبيل قاسم

عزيزتي أروى..

لا أعلم ان وصلتك خطاباتي السابقة، لا أعلم إذا كانوا لا يرسلونها من المستشفى أم أنها تصلك ولا تريدين قراءتها؟ لكنني سوف أستمر في مراسلتك شئت أم أبيت، فمنذ رحيل أمنا وانقطعت صلتي بالعالم الخارجي مع رحيلها، إلا من بعض الخطابات من خالتنا على فترات، لطالما كان دعائي اليومي "يا ليت العالم يفنى غداً". لكنني أوشكت على الخروج، بضعة أشهر فقط تفصلني عن لقائكِ.. فلينتظر العالم.

كارما

١٥-١٠-٢٠١٩

***

أكلمت حديثها:

- كان استقبالها ليا لما طبيت عليها في البيت خالي من العواطف زي ما توقعت، يمكن شوية دهشة وخبتها بسرعة عشان تفضل محتفظة بمظهر الواثقة القوية، طول عمرها بتعرف تخبي انفعالاتها كويس أوي. قعدت يومها في نفس كرسي أمي، قعدت وربعت بكل بثقة عشان تفهمني في رسالة صامتة إنها صاحبة البيت دلوقتي، ونظرة السخرية اللي كانت على وشها لوحدها كفيلة إني كنت أطير رقبتها وهي بتبص لي من فوق لتحت وعلى طرف لسانها وقف سؤال واحد: "انتِ إيه اللي رجعك؟".

- رجعت عشان مدتي خلصت.. فرجعت لبيتي.

قامت وجابت لي جواب كدا:

- آه خالتك قالت لي إنك خارجة خلاص، بس متوقعتش هترجعي على هنا!

بصيت في الجواب بصة سريعة، خالتي الطيبة بتتحايل عليها عشان تروح تشوفني وتستقبلني وأنا خارجة.. لكن طبعًا هي ما اهتمتش. هختصر عليك كلام ولوم ١٠ سنين اللي قلته ليها يومها..

على فكرة يا هاني، أنا كان عندي أمل ١٪ إنها تغير لي خطتي، وتثبت لي إنها ممكن تجبرني أسامحها وممكن نفتح صفحة تانية جديدة، لكن أروى للأسف مابتتغيرش.. بالعكس ممكن تكون بقت أحقر. شايفة إن البيت دا كله ملكها

والحق حقها، وأنا اللي قتلت إنجي عشان أنا تور هايج مش بني آدم يعرف يتحكم في أعصابه، وقالت لي بمنتهى الوقاحة: "أمك قبل ما تموت باعت لي البيت.. البيت باسمي وانتِ ملكيش فيه أي حاجة".

كلام كتير أوي يا هاني، ماسكتتش غير لما خبطتها بالطفاية الإزاز في رأسها ووقعت على وشها محطتتش منطق.. يااااااه! منظرها وهي قاطعة النفس على الأرض كان مريح بشكل! حقيقي شفيت غليلي..

كبت ١٠ سنين وعذاااب في سجن بسببها مابردوش غير لما شفت دمها سايح هنا كدا تحت رجليك، مخفتش من أي حاجة الصراحة، ولا حسيت بأي تأنيب ضمير في الواقع. جريتها من البيت للجنينة ومن الجنينة للمخزن، الكلب ابن الكلب كان مربوط في الجنينة بس هيتجنن عايز ينط يموتني وهو شايفني مجرجراها سايحة في دمها وعمال يهوهو هيلم عليا الجيران. خبطته هو كمان بالعصاية على راسه، وقع على الأرض.. يستاهل.. دا تمن صباعي إلى قطعهولي وأنا عيلة صغيرة.. افتكرته مات وقلت هبقى أدفنه هو كمان أو أرميه في أي خرابة، مايستهلش إني أتعب نفسي وأحفر له حفرة.

على ما دورت على عصاية وخبطته على راسه كانت جثتها عمالة تصفي في دم على الزرع، والحشيش الأخضر قلب كله أحمر في البقعة دي. عارف.. دي الحتة اللي كان كل ما الكلب يدخل يقعد يشم وينبش فيها.

كملت جر في جسمها للمخزن وقلت هسيبها تحت لحد ما أحفر حفرة في الجنينة، وبعدين افتكرت الأوضة اللي تحت السلم، الأوضة اللي كانت ماما بتربي فيها فراخ زمان، الأوضة اللي حبستني فيها مرة وإحنا بنلعب استغماية لما دخلت أستخبى فيها.. قفلت عليا الباب وسابتني جوا ٤ ساعات بعيط وبصرخ وبخبط على الباب. الفكرة لمعت في عقلي لدرجة إن لمعانها عمى عيني، حسيت إن مفيش مكان هيكون أنسب من إنها تترمي فيه أكتر من المكان دا.

رغم تعبي وإرهاقي لكن الحماس إداني قوة تهد جبال، وجريتها لجوا الأوضة، الحمد لله الأرض كانت رمل مش خرسانة، ماما كانت سايباها رمل عشان بتربي فيها فراخ وبط.

حفرت.. حفرت.. حفرت.. الحفرة وسعت وبقت تساع جسمها الرفيع، وزقيت جسمها برجلي، اتدحرج وقع في الحفرة. لما طلعت للجنينة لقيت الكلب بيعوي وبدأ يفوق لكن لسه مش بيتحرك، فكيت الطوق بتاعه وفضلت أزق فيه لحد ما رميته برا البيت. بصيت حواليا، مفيش حد، الساعة ٣ بالليل، فضلت أزقه لحد ما بقى بعيد عن باب البيت ورجعت جري وقفلت عليا باب الجنينة.

دخلت البيت جبت المفرش اللي كان على الكرسي وأي حاجة عليها دم، جواب خالتي.. شنطتي.. وشبشبها، و رجعت حطيتهم في الحفرة فوقها. بدأت أحس بتعب جسمي، بدأت أرتعش ورجلي متشيلنيش، سيبت كل

حاجة في الأوضة جوا المخزن وطلعت قلعت كل هدومي ورميتهم على الدم اللي في الأرض عشان يمتصوه، وأنا اترميت على الكنبة آخد نفسي وأبص في السقف.

عيني راحت في النوم.. يمكن ساعة واحدة، صحيت بعدها مفزوعة وأنا بخبي عيني من كشاف الممرضة، أخدت دقيقتين على ما أدركت إني مش في المصحة.. مفيش ممرضة ومفيش كشاف في عيني عشان أصحى.. أنا في بيتنا عادي ودا نور التلفزيون اللي لسه شغال من بالليل، وفيه دم على الأرض.. وفيه جثة محتاجة تدفن.

قمت نضفت الدم من الأرض كويس أوي، ورميت لبسي في الحفرة برضو.. بصيت بصة أخيرة عليها.. أروى.. توأمي، نايمة ببراءة ونص وشها متغطي بالدم، منظرها البريء يخدع أي حد يشوفها ويقولك: "يا حراااام.. حد يقتل الملاك دا؟".

حسيت بالتقزز، مش قادرة أشوفها أكتر من كدا، بدأت أحدف عليها الرمل لحد ما اتغطت تمامًا والأرض اتساوت. رجعت للبيت وعصرت مخي عشان أفتكر كل حاجة لمستها من ساعة ما جيت عشان أمسح بصماتي من عليها. لقيت بخور، ولعتها ورشيت معطرات.

أخيرًا بعد ٤ ساعات من الشغل الشاق، البيت رجع زي ما جيت له امبارح بالظبط، بس أنضف، لأن مفيهوش أروى. دخلت أخدت دش وخرجت على أوضة أمي، فتحت دولابها ولبست لبسها ونمت في سريرها بعمق، نمت سعيدة منتصرة لأول مرة من ١٠ سنين.

***

تأملتها وهي تتربع على الكنبة التي عرفت أنها آخر مكان جلست فيه أروى قبل أن تصبح جثة هامدة، وسألتها:

- بقيتي زيك زيها يا كارما.. إيه الفرق بينك وبينها دلوقتي؟

ضحكت ثم قالت:

- لا أنا بقيت هي حرفيًا.. مش مجرد زيي زيها.

ثم شردت وهي تنظر إلى أداة إزالة الغبار (الرياشة) الملقاة في ركن الحجرة بإهمال وقالت:

- والله يا هاني هو دا مكنش في خطتي حتى، أنا كانت خطتي بتخلص بقتلها وبس، اللي حصل بعد كدا دا مكنش في بالي أصلًا..

ثم أشارت إلى الرياشة قائلة:

- البركة في غباء أم محمد اللي أوحى لي بفكرة جهنمية.

تاني يوم صحيت على صوت نور قوي ضارب في وشي، قمت مفزوعة، افتكرت نفسي بحلم وإن كل دا لسه في المصحة مسبتهاش.

- بسم الله الرحمن الرحيم.. خير يا ست أروى! أنا خضيتك ولا إيه؟

بصيت لها.. يااااه أم محمد! الست اللي كانت بتساعد أمي في تنضيف البيت.. لسه عايشة؟ وزنها زاد الضعف مثلًا!

- معلش ما تآخذينيش فتحت الستارة في وشك.. ما الساعة يطلع لها ٣ العصر يا بنتي. دا أنا هنا بقالي يجي ساعتين.. لما رنيت عليكِ الجرس ومافتحتيش قلت نبقي نايمة.

- انتِ.. دخلتِ ازاي أمال؟!

- يوه! بالمفتاح اللي انتِ سايباه معايا، لا يا ست أروى لاااا.. دا انتِ لسه صغيرة على الزهايمر، ها أعملك فطار؟ ولا النسكافيه بتاعك؟

- انتِ لسه رغاية زي ما انتِ؟!

تأملتني بعدم فهم وقالت لي:

- موودك مش رايق.. يبقى النسكافيه بتاعك.

وخرجت. الست ما عرفتنيش.. فكرتني أروى! قمت غسلت وشي، وبصيت لنفسي في المراية، وشي شاحب كأني قاتلة قتيل. ضحكت مع نفسي

على التعبير الساخر الدقيق، ونزلت لقيتها مطلعة لي النسكافية في الجنينة. كنت مرعوبة تكون شافت الدم اللي على النجيلة، بس لحسن حظي أثر الدم اللي نسيت أنضفه بعيد نوعًا ما عن المكان دا. وقعدت ترغي معايا عن أسعار المنظفات والخضار واللحمة، وأنا بالي وعيني في بقعة الدم اللي بتلمع هناك. الحمد لله إن نظرها الضعيف ما ساعدهاش إنها تشوفه.

- انتِ مالك النهاردا يا ست أروى؟!

- مالي؟

- مش عاجباني كدا، وسايبة شعرك (نكشو) كدا ليه؟

- مش نايمة كويس.

- ولا داخلة على برد؟ أصل صوتك مغشلج كدا ومتغير. انتش لازمن ولا بد داخلة على برد..

- تقريبًا.

- يبقى هعمل لك كوباية ليمون سخن بالعسل.

- لا مابحبوش دا لأ..

- يا خرابي! دا انتِ مابتشربيش غيره لو عندك كحة!

سكتت وهزيت راسي، محبتش أشككها فيا، وبمجرد دخولها البيت قمت وصلت خرطوم الري وسيبته على بقعة الدم. تيار المياه سحب الدم معاه بعيد

وغسل العشب تمامًا. بعد شوية جالي عم عبده بواب الجيران اللي طبعًا أنا مكنتش عارفة دا مين لولا وجود أم محمد الرغاية إلى مش بتستنى حتى إني أسألها وبتطوع تقول معلومات أنا عمري ما كان هييجي في بالي أسأل عنها.

"دا عم عبده البواب جايب لك الجرانين.. دا بقى عم عصام السباك جاي يصلح لك الماسورة بتاعت الحمام اللي فوق.. أحمد بتاع دار النشر هيعدي عليكِ النهاردا متنسيش عشان هيديكِ الأرباح انتِ قولتِ لي أفكرك عشان تديني الحلاوة.. الولا الطيار بتاع مطعم الخليفة اللي على ناصية الشارع مسافر لأمه إسكندرية هتبعتي معاه فلوس للست عفت خالتك ولا الشهر الجاي؟".

وفي نهاية اليوم المثمر، باست خدي وأخدت اللي فيه النصيب ومشيت وسابت لي الفكرة.. أنا من النهاردا (أروى نبيل). ويومها حفرت الحفرة تاني ورميت محفظتي ببطاقتي فيها.. دفنت كارما مكان أروى.

***

قاطعتها قائلا بدهشة:

- ومحدش قدر يعرف؟! يعني أروى دي ملهاش حد مقرب؟ صديق أو حد بتحبه!

هزت كتفيها مبتسمة:

- مكنش فيه.. كانت وحيدة تمامًا، أصاحبها المقربين كانوا مهاجرين والعلاقات شبه مقطوعة ودا من حسن حظي.

صمتت وصمتُّ.. ثم عدت أسألها:

- بقالك قد إيه عايشة على إنك أروى؟

- سنتين.

عدت لصمتي ثم قلت لها:

- طب وأنا؟!

- لما لقيتك وكلمتك من أكونت أروى في تِندر كان عندي فضول.. عمري ما اتكلمت مع راجل تقريبًا.. مكنش عندي الجرأة أتكلم مع حد وش لوش.. فيه اختراع الأبليكشن وإني أكلم حد وأنا مستخبية ورا الرسايل وبشخصية أروى.. كان عبقري بالنسبة لي، بس في الحقيقة اتعلقت بوجودك، ولقيت نفسي لما بتطلب مني نتقابل بوافق، رغم إني كنتَ خايفة أوي.

صمتت لوهلة ثم سألتني:

- تفتكر لو كنت قلت لك الحقيقة.. كنت هتفهم؟

- كنت هحاول..

عقدت حاجبيها وقالت ساخرة:

- هتحاول تفهم إني قاتلة أختي ومنتحلة شخصيتها؟ بجد؟!

- كنت هحاول لأني بحبك يا كارما!

- its too late يا هاني..

ونهضت واقتربت مني، فتقلصت معدتي بشدة، انحنت لتقرب وجهها من وجهي قائلة:

- أنا كمان بحبك..

بلعت ريقي بصوت مسموع:

- ودلوقتي أنا عرفت كل حاجة.. هتقتليني أنا كمان؟

نظرت في عيني وقالت:

- تفتكر؟!

لم أُجِبها. وساد صمتٌ ثقيل وأنا أتأمل السكين بيدها، لكنها قالت لي:

- امشي يا هاني..

واستدارت لتبتعد خطوتين فقلت لها بعدم فهم:

- أمشي؟!

- أيوا..

- بس أنا هبلغ يا كارما!

صمتت قليلًا وهي تنظر بشرود إلى سقف الحجرة ثم قالت بهدوء:

- امشي يا هاني..

نهضت من مجلسي أرضًا واقتربت منها، لمست كتفها بحذر، فلم تُحرك ساكنًا. جذبتها لأحتضنها بقوة فسقطت منها السكين. عناق أخير.. لكنه قال كل ما يعتمر بداخلي. شعرت بدموعها الحارة تبلل كتفي ثم دفعتني بعيدًا عنها صائحة :

- امشي.. امشي..

تراجعت إلى الباب بخطواتٍ بطيئة، وبينما عيني لم تغادر وجهها، لمست يدي الباب وفتحته لأخرج، فقالت شيئًا أخيرًا بصوتٍ باكٍ عن برونو، أعتقد أنها قالت أن أتركه هنا في الفيلا، لم أكن أنوي أن أصحبه معي الآن، عندما أعود ليلًا سوف آخذه. أطلقت ساقي للريح ولم أنظر خلفي، فتعثرت مرارًا وأنا في طريقي إلى الخارج.

الحديقة.. ثم باب الفيلا.. ثم سيارتي العزيزة.. أنفي يتقلص وهو يلتقط رائحة دخان قوية في الأجواء لا أعرف مصدرها، لكني لم أهتم كثيرًا. جلست أرضًا أبحث عن المفتاح في الحقيبة متعجلًا، يا إلهي! لا أجده!

أخرجت جميع محتويات الحقيبة، الخطابات.. الصور.. دفتر المذكرات.. ها هي المفاتيح! فتحت السيارة وجمعت الأشياء التي كانت بالحقيبة لأضعها جميعًا على المقعد بجواري، يدي ترتعش بشدة، أحاول جاهدًا أن أسيطر عليها

لأقرب المفتاح من موضعه، لكنني أفشل كل مرة في تصويب المفتاح لمكانه الصحيح. أخيرًا نجحت.. دار المحرك وفي خلال ثانيتين كنت خارج الحي.

***

حين عدت إلى الفيلا ليلًا مع الضابط وسيارة الشرطة، كانت النار قد التهمت كل شيء، الدخان الكثيف يحيط بالمكان والجميع يسعلون. اقتربت وقلبي يدق بشدة حتى كاد يخرج من ضلوعي، جدران الفيلا الأنيقة التي تعود لإحدى الأسر المالكة، وحديقتها الواسعة، كانوا قد اصطبغوا جميعًا باللون الأسود بفعل الحريق. الناس تتحدث، يزدحمون أمام باب الفيلا، رجال المطافئ يسحبون خراطيمها وقد أعلنوا انتهاء دورهم بحزن، فلم يستطيعوا إنقاذ المنزل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله! النار والعة في البيت بقالها ٥ ساعات!

- محدش عرف يدخل يطفي الحريقة، المطافي على ما وصلت كان البيت النار أكلته.

- طب والست اللي عايشة جوا يا اخوانا!!!!؟!

سيارة إسعاف هناك تقف في خشوع بينما خرج اثنان من المسعفين يحملون شيئًا ما على المحفة، مغطى بغطاء وتتصاعد منه الأدخنة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

ظهرت أم محمد من مكانٍ ما صارخة وهي تندب صائحة:

- لا يا ست أروى لا...

ثم انحنت على يد أحد رجال المطافئ لتقبلها صارخة:

- الست أروى جوا والنبي طلعوهاااااا..

ربط الرجل على كتفها في أسى، بينما وقفت أنا صامتًا وقد منعتني دموعي من الرؤية بوضوح. لمحتني هي بين الرجال فجرت عليَّ مستغيثة:

- الست أروى يا سي هاني.. الست أروى!

لم أستطع أن أقول لها أن أروى توفاها الله منذ عامين، أما اليوم.. فقد لحقت بها كارما.

***

في الأيام التالية، استطاع رجال المباحث الجنائية استخراج رفات أروى من غرفة المخزن، وأثبتوا أنها متوفية قبل الحريق بما يقرب من العامين بسبب كسر في الجمجمة، كما وجدوا جثة برونو متفحمة بداخل الغرفة. المسكين، كان متمسكًا بوجوده بجوار عظام سيدته حتى النهاية، وأثبتوا أن الحريق بدأ من غرفة المخزن وأخذ وقتًا لا بأس به حتى يصل إلى أعلى الفيلا. وأن هناك من قام بسكب الكثير من الجاز حتى يشعل الحريق، وأخذ الحريق ينتقل سريعًا بين أرجاء الفيلا حتى تمكن منها في خلال ساعة.

أما كارما، فقد وجدوها في غرفة أمها العلوية، نائمة على فراشها بهدوء لم يطلها الحريق بكثير من الأذى، فقد أخرجها رجال المطافئ قبل وصول الحريق لشدته في الطابق العلوي. فكان جسدها شبه سليم، لكن تقرير الطبيب الشرعي أثبت أن سبب الوفاة هو الاختناق بفعل الدخان الكثيف.

دعاني رجال المباحث لأكثر من عشر تحقيقات، وأعدت على مسامعهم القصة مئات المرات، لكنها كانت قصة معقدة صعبة التصديق للغاية، على الرغم من فتح الملف القديم لقضية كارما، وعلى الرغم من معرفتهم بتاريخ إطلاق سراح كارما من المصحة والذي يتزامن مع تاريخ وفاة أروى حسب تقرير الطبيب. لم يكن أمامهم سوى أن يثقوا في أقوالي، فأنا الشاهد الوحيد على اعترافات كارما قبل وفاتها. لم أخبرهم بدفتر المذكرات أو الخطابات، فقد أردت أن أحتفظ بهم لنفسي. في النهاية أُغلقت القضية.

أما أنا.. فقد قضيت شهورًا أقرأ الخطابات التي لم أكن قد قرأتها بعد، أعدتُ قراءتها مئات المرات، وعكفت على ربط الأحداث بعضها ببعض. أستطيع الآن أن أُفسر غرابة أطوارها التي كانت تؤرقني. لم تكن تدري شيئًا عن أحداث روايتها لأنها ببساطة لم تكتبها، مثلما قالت لي لميس. ولم تكن هذه سمات توحد كما ادعت، لقد كانت آثار معاناتها النفسية والجسدية بالمصحة.

تعجبت من قوة احتمالها، تأملت صورها، صورها هي وليست صور أروى.

فتاتي الرقيقة البائسة، لعلها ترقد في سلام الآن بعدما نالت انتقامها القاسي حتى ولو تأخر كثيرًا.

يا لسخرية القدر!

لقد صدقت أروى في مقولتها:

"التأخر في الانتقام يجعل الضربة أشد قسوة".